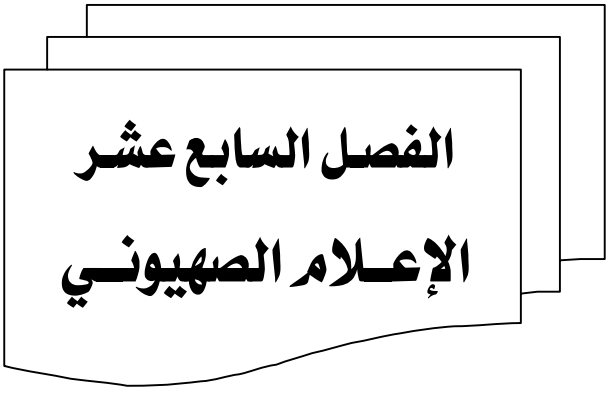
الفصل السابع عشر
الإعلام الصهيوني

كان وما زال الإعلام الصهيوني يلعب دورًا كبيرًا في الصراع العربي الإسرائيلي منذ أن وجدت الحركة الصهيونية، في البداية قام عدد من اليهود، وكذلك المتعاطفين مع تطلعاتهم من ساسة وقادة دول واقتصاديين، بالاقتراب من المسئولين العرب، تارة عبر الوسطاء والسماسرة من الأوروبيين، وتارة بلقاء بعض الزعماء العرب مباشرة والتفاوض معهم بالإغراء وبالترهيب، وبعد إعلان الدولة الصهيونية أضحى هناك قسم للإذاعة التي تبث باللغة العربية، إن كفاءة الإعلام الإسرائيلي لا تضاهى كونها إحدى ثمرات الإعلام الصهيوني العالمي المتفوق والمهيمن، فإسرائيل هي القوة الأكثر تنظيمًا في المنطقة العربية وذات الأجندة الأكثر وضوحًا، وشارعها أقل تعرضًا وتأثرًا بالإعلام العربي، لا نبالغ إذا قلنا إن الإعلام الصهيوني استطاع أن يقنع الغالبية العظمى في الغرب بأن إسرائيل دولة تحب السلام وجيرانها يسعون إلى إفنائها، وأن الفلسطيني صاحب الحق الشرعي إذا قاوم الاحتلال الإسرائيلي فإنه إرهابي، والمقاومون الفلسطينيون الذين يقعون في الأسر الإسرائيلي هم إرهابيين ومجرمين بحق الإنسانية، وأن اليهود الذين يأتون من شتى بلاد العالم ويستولون على بيوت الفلسطينيين وأملاكهم عائدون إلى وطن الآباء.

تلمس السيطرة الإعلامية الصهيونية بسهولة في عصر الفضائيات، فيمكنك أن تجد اختراقا نوعيًا قد حققه الإعلام الصهيوني عوضًا عن هيمنته العالمية المستمرة، من تلك الاختراقات أن الإعلام العربي أضحى يقبل استضافة الزعماء الصهاينة في القنوات الفضائية ناهيك عن المفكرين والصحفيين ورجال الاقتصاد، وصار يحاور هؤلاء ويسمح لهم بأن يقدموا إسرائيل والصهيونية للمواطن العربي بالطريقة التي يرتئونها، الصحافة العربية من ناحية أخرى صارت تنشر مقالات مترجمة مما تنشره الصحافة الإسرائيلية، ومعنى ذلك أن التطبيع الثقافي الممنهج بين الكيان الصهيوني والعالم العربي أصبح هو الخطة التي تسبق الاعتراف الرسمي للعرب كأمة بإسرائيل.

إن هذا النوع من التطبيع هو مثل الغزو الثقافي الأمريكي الـذي سـبق النظـام العالمي الجديد الذي تقوده الولايات المتحدة في هذا العصر، فقد غـزت أمريكـا العالم منذ سنوات طويلة عن طريق أفلام السينما والسجائر الأمريكيـة، وبنطـال الجينز والكوكا كولا وبطاقات الائتمان ومنظمة التجارة العالمية، وغير ذلك الكثير مما يقدم طريقة الحياة الأمريكية والنمط الأمريكي والثقافة الغربية بصفة عامـة في المأكل والملبس والهواية.

مخطيء من يظن بأن النظام العالمي أو العولمة التي فرضتها أمريكا على سـكان الكرة الأرضية هي وليدة تسعينات القـرن الماضـي أو بدايـة القـرن الحـادي والعشرين وثورة الإنترنت، لذا يمكن القول بإن أمريكا في هـذا العصـر أعلنـت رسميًا قانون العولمة، أما العولمة نفسها فقد كانت تمارسها وتنشرها في العـالم منذ مدة طويلة وقد جاء الوقت الآن فقط لإعلانها، لهـذا لا نسـتغرب أن تكـون الصهيونية تطبع مع العرب عبر الإعلام قبل الإعلان رسميًا عن انتهـاء قضـية فلسطين في العقل العربي كما أنهتها في العقل الغربي بصفة عامة.

يعتمد فن الإعلام الصهيوني الموجَّه للعقل العربي على مبدأ التضليل بصفة عامة، ومن خلال الاختصار والاختزال والاعتماد علـى الإبهـام والغمـوض والتلاعـب بالألفاظ حتى لا يعتقد المتلقي أنه إعلام كاذب، فالأكاذيب تكون عادة غير مباشرة بالغمز والإيحاء، لقد استطاع الإعلام الصهيوني أن يزرع في العقل العربي علـى سبيل المثال لا الحصر خصوصًا حينما يُشير إلى الفلسـطينيين الـذين يحملـون الهوية الإسرائيلية، استطاع أن يسميهم "عرب إسـرائيل"، ألـيس مـن الأجـدر والأصح أن يسمى أهل البلاد باسم وطنهم ليقال عنهم فلسطينيو إسـرائيل مـثلاً! لكن الإعلام الإسرائيلي عن قصد أعطى هذه التسمية حتى يُقنع الأجيال القادمـة من العرب وكأمر واقع بأن فلسطين هي أرض اليهود، وأن الشـعب الفلسـطيني الذي خرج من فلسطين ويعيش معظمهُ في الدول العربية، ما هو إلا قد عاد إلـى بلاده التي أتى منها أصلاً إلى فلسطين حينما تم هدم الهيكل وتشتت اليهود علـى يد الرومان في القرن الثاني الميلادي.

هذا، ورغم أن إسرائيل لم تتوقف منذ إنشائها عن قتل العرب وسحقهم في أرض فلسطين وفي الدول المجاورة، إلا أنها قد أقنعت العالم بأنها تُدافع عن نفسها وليس أكثر فجيشها يُسمى جيش الدفاع لما لكلمة دفاع من مغزى! وما حرب اجتياح لبنان عام ١٩٨٢م ومذابح صبرا وشتيلا، وحرب لبنان عام ٢٠٠٦م وحرب غزة التي شنتها إسرائيل في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨م إلا خير دليل على عنف وإرهاب الدولة الصهيونية.

الإعلام الصهيوني لا يمل من تذكير العالم بأحقية اليهود في فلسطين، وأن من الإيمان بالرب أن تُقام دولة لليهود على أرض فلسطين، لقد استقرت في الوعي الغربي رواية أن العرب الفلسطينيين تركوا بلادهم عام ١٩٤٨م بناء على طلب قادة الجيوش العربية إلى درجة جعلت الغرب ينظر إلى إسرائيل في كافة جولات صراعها مع العرب على أنها الضحية، لكن الأسطورة الصهيونية وجدت أخيرًا من يفندها من الإسرائيليين أنفسهم أو من سموا بالمؤرخين الجدد، قام هؤلاء بفحص العديد من الوثائق التي تم رفع السرية عنها خصوصًا الوثائق التي تتعلق بقيام دولة إسرائيل، المؤرخ اليهودي الإسرائيلي "بني موريس" مثلاً بعد بحث مستفيض حمَّل إسرائيل مسئولية إيجاد مشكلة اللاجئين الفلسطينيين.

المؤرخ البروفيسور "ايلان بابه" أستاذ التاريخ بجامعة حيفا في كتابه الذي صدر في بريطانيا "التطهير العرقي في فلسطين"، استخدم لأول مرة عبارة "التطهير العرقي"، معتبرًا ما قامت به المنظمات الصهيونية عام ١٩٤٨م هو جريمة ضد الإنسانية، وأن التطهير العرقي الذي تم في فلسطين هو خطة ممنهجة كانت قد وضعتها الصهيونية مقدمًا حتى قبل إعلان دولة إسرائيل، وقد ذكر ايلان بابه في كتابه إلى أنه ليس صحيحًا أن إسرائيل كانت تواجه سبعة جيوش عربية مجتمعة سنة ١٩٤٨م، إذ أن مجمل ما حشدته الدول العربية كان نحو ٢٤ ألف جندي في مقابل ٦٥ ألف مقاتل صهيوني مزودين بأحدث الأسلحة وعلى قدر عال من التدريب العسكري حيث كان معظمهم ممن خدموا في الفيلق اليهودي الذي حارب مع الحلفاء في الحرب العالمية الثانية.

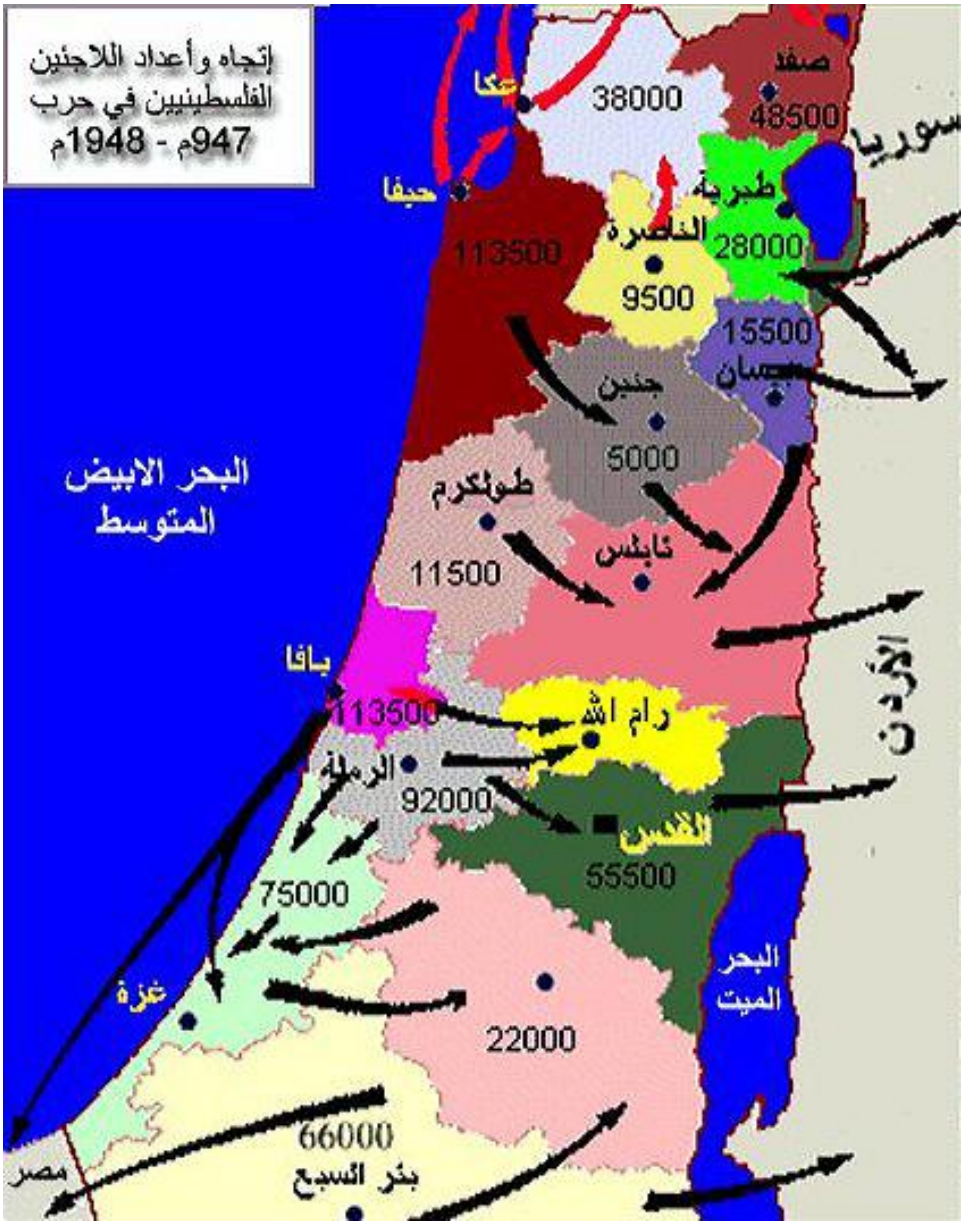
إتجاه وأعداد اللاجئين
الفلسطينيين في حرب
947م - 1948م
عكا
38000
صفد
48500
سوريا
حيفا
طبرية
28000
الناصرة
9500
113500
15500
جنين
5000
البحر الابيض
المتوسط
طولكرم
11500
نابلس
يافا
113500
رام الله
الرملة
92000
الأردن
القدس
55500
75000
البحر
الميت
غزة
22000
66000
مصر
بئر السبع

كما يُشير الكتاب إلى أن إسرائيل ظلت الطرف المراوغ في مشروع السلام مع الفلسطينيين، وأنها ما زالت ترفض الاعتراف بمسئوليتها الأخلاقية عن تشريد ٨٠٠ ألف فلسطيني من بيوتهم وأملاكهم وتدمير قراهم، وأنها لا تجد من يجبرها على الاعتراف بمسئوليتها طالما عراب السلام هو الولايات المتحدة الأمريكية التي تنحاز دائمًا إلى جانب إسرائيل. وقد انتقد المؤرخ الجديد ايلان بابه الآخرين لأنهم لم يأخذوا بالوثائق العربية عما جرى في عام ١٩٤٨م لاستجلاء الحقائق كما فعل هو حينما استعان بكتاب "كي لا ننسى" للدكتور وليد الخالدي.

الموقع	التقديرات البريطانية	التقديرات الأمريكية	تقديرات الأمم المتحدة	تقديرات إسرائيلية خاصة	تقديرات الحكومة الإسرائيلية	تقديرات المصادر الفلسطينية
غزة	٢١٠,٠٠٠	٢٠٨,٠٠٠	٢٨٠,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	-	٢٠١,١٧٣
الضفة لغربية	٣٢٠,٠٠٠	-	١٩٠,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠	-	٣٦٣,٦٨٩
الأردن، سوريا، لبنان	٢٨٠,٠٠٠	٦٦٧,٠٠٠	٢٥٦,٠٠٠	٢٥٠,٠٠٠	-	٢٨٤,٣٢٤
المجموع	٨١٠,٠٠٠ فبراير ١٩٤٩	٨٧٥,٠٠٠ (١٩٥٣)	٧٢٦,٠٠٠ سبتمبر١٩٤٩	٦٥٠,٠٠٠ نهاية ١٩٤٩	٥٢٠,٠٠٠ (١٩٤٨)	٨٥,٢٧٦ نوفمبر١٩٥٢
			٩٧٥,٠٠٠ مايو١٩٥٠	٦٠,٠٠٠/ ٧٦٠,٠٠٠ (١٩٥٠-١٩٤٨)	٥٩٠,٠٠٠ (١٩٥٢)	٧٧٠,١٠٠/ ٧٨٠,٠٠٠ نهاية ١٩٤٨
						٧١٤,١٥٠/ ٧٤٤,١٥٠ منتصف١٩٤٨

تقدير أعداد اللاجئين الفلسطينيين ومواقع وجودهم ١٩٤٨ – ١٩٤٩م، يضاف إلى ما ذكر أعلاه، ما مجموعه ٢٨٩٤٨٩ من اللاجئين الفلسطينيين، الذين وفدوا إلى مصر والعراق وبلدان عربية أخرى.

العدد	١٩٩٠ – ١٩٩١ م	١٩٩٥ م	٢٠٠٠ م
الفلسطينيون في العالم	٥,٧٨٠,٤٢٢	٦,٦٩٢,١٥٣	٧,٧٦٠,٦٠٨

لكن إسرائيل لا تدافع فقط عن ثوابتها ولم تصل بعد إلى مرحلة الدفاع كمتهمة خصوصًا وأن الإعلام العربي ما زال خجولاً ولا يلتفت إليه أحد في العالم كون المحاور العربي ما زال يحتاج إلى مران لكي يستطيع أن يتحدى المحاور الصهيوني أمام المتفرج الغربي.

المحاور الصهيوني أمام الإنسان الغربي يبدو هادئًا ويتبع أسلوبًا مثاليًا بالطريقة التي يحب أن يستمع إليها الإنسان الغربي، فحينما يُوجِّه للصهيوني سؤالاً مثلاً فإنه يجيب بطريقة هادئة تجعل المستمع ينصت إليه أكثر، ويدعه يأخذ انطباعًا كأن ما يسمعه من المتحدث هو الحقيقة بعينها، فإن استعمل الصهيوني يديه مثلاً خلال الحوار فإن حركاتها تعبر عن فكرته التي يحاول إقناع المستمع بها، في المقابل وهو ما يحدث في أغلب الأحوال، المحاور العربي لا يبدو كذلك، فهو غير مرتب الأفكار وإن استعمل يداه كوسيلة للإقناع مثلاً فإنه يُشير بهما إلى المحاور الذي يقابله مباشرة، كأن يشير بإصبعه مثلاً إلى من يجلس أمامه، ولأن نفس المحاور العربي قصير لأنه يأتي بفكرة واحدة فقط، فسرعان ما يبدو عليه التعصب فيفقد السيطرة على نفسه، ويمكن أن تحدث له سقطات خلال طرح حجته وسرعان ما تسجل ضده ويصبح متهما في نهاية الحوار وتصبح قضيته خاسرة.

لقد اشتهر الإعلام الصهيوني في خطابه إلى الغرب ليس فقط بالتبريرات وبالدفاع عن أهدافه المباشرة، إنما أيضًا بزرع القناعة بأهمية وجود إسرائيل بالنسبة للحضارة الغربية في هذا المكان المتقدم للغرب في المنطقة العربية، أو كما قال تيدور هرتزل منذ البداية، "إن الدولة اليهودية ستكون حائطًا يحمي أوروبا في آسيا وسوف يكون حصنًا منيعًا للحضارة في وجه الهمجية".

وقال أيضًا حاييم وايزمان الذي شغل منصب رئيس الوكالة اليهودية العالمية ثم منصب رئيس الدولة في إسرائيل، "إن القضية الصهيونية هي قتال الحضارة ضد الصحراء وكفاح التقدم والفاعلية والصحة والتعليم ضد الجمود الفكري"، ولقد التزم الإعلام الصهيوني بتلك الأقوال وعرف كيف يمضي على نفس الوتيرة، واستطاع أن يحتل منطقة اللاوعي عند المواطن الغربي وجعله يسن القوانين التي تضمن استمرار المفاهيم الصهيونية لكي تنقل للأجيال الجديدة، فلا نستعجب حينما نرى الشباب الغربيين متعصبين ويدافعون عن الصهيونية وعن الكيان الإسرائيلي وممارساته في الأراضي المحتلة، لذا ظل المواطن الغربي بصفة عامة لا يملك إلا أن يتعاطف مع إسرائيل واحة الديمقراطية بين قطعان العرب الهمج أو كما تُصورهم الدعاية الصهيونية!

منذ المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧م نص البند الثالث من مقررات ذلك المؤتمر على "ضرورة العمل على نشر الروح والوعي بين يهود العالم وتعزيزهما لديهم من أجل دفعهم للهجرة إلى فلسطين"، لذلك فمنذ قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م أصبح الإعلام حجر الزاوية في السياسة الخارجية الإسرائيلية، الإعلام الصهيوني له الفضل في ترغيب يهود العالم وإقناعهم بالقدوم إلى إسرائيل، وله الفضل في زعزعة ثقة العرب بأنفسهم وتنشيط الخلافات العربية العربية، وله الفضل أيضًا بتصوير إسرائيل الطرف المعتدى عليه أمام العالم، وله الفضل في إبقاء الهولوكوست مقررًا دائمًا في وسائل الإعلام الغربية على وجه الخصوص، وجعل المواطن الغربي من الأجيال اللاحقة يشعر بأنه أيضًا مسئول عما حدث فتبقى المساعدات والتبرعات للكيان الصهيوني سيلاً لا ينقطع، كما وأن الإعلام الصهيوني له الفضل في إقناع المواطن الغربي بأن إسرائيل هي جزء من حضارته وخط أمامي للدفاع عن مصالح أمته، لقد أصبحت إسرائيل بفضل إعلامها المتفوق مثل الطفل المدلل لدى الولايات المتحدة الأمريكية كونها تبدو كحامية للمصالح الأمريكية في ذلك الموقع المتقدم.

لقد أدرك الكيان الصهيوني منذ البداية أيضًا، بأن الاعتراف الدولي بدولة لشعب غير موجود ويتم تجميعه من القارات، لا يكفي ولا يُعتبر ضمانه لبقاء هذا الكيان، لذا عمل على السعي لإيجاد ضمانه لاستمرار هذا الكيان، وانتهى به البحث إلى ضرورة خلق إحساس لدى الرأي العام الغربي بأن مصالحه آمنة وتقدمه يرتبط بحد كبير ببقاء الكيان الصهيوني والمحافظة عليه فكان الاهتمام بالإعلام أولاً هو الخطوة الأولى، وعلى إثر هذا نشأت الجمهوريات والممالك والإمبراطوريات الإعلامية التي جعلت أهم أهدافها خدمة الكيان الصهيوني.

يُعتبر "روبرت مردوخ" أحد أساطين الإعلام في العالم، ومردوخ ليس يهوديًا كما يُشاع عنه وإن بدا اسمه يهوديًا، لكنه يميني متطرف يموت عشقًا بالصهيونية، فهو من المسيحيين الأصوليين الذين يؤمنون بالتفسير الحرفي للتوراة (المحافظين الجدد)، وهو ملتزم بما تمثله الصهيونية بالنسبة لوجود دولة لليهود في فلسطين وإن كان التيار الذي يقود الصهيونية علمانيًا، يُعتبر مردوخ الصوت الأقوى المُعبِّر عن المحافظين الجدد في الولايات المتحدة وإن كان أصله استرالي، قالت بعض التقارير الأمريكية الموثوق بها (تقرير واشنطن لشهر يونيو ١٩٩٥)، "إن موردوخ لا هو يهودي الديانة ولا من أعضاء جمعية الصداقة الأمريكية الإسرائيلية (إيباك)، وعلى الرغم من ذلك فهو أفضل من يمكن تكليفه بإصدار مجلتين جديدتين تعملان لدعم إسرائيل إعلاميًّا"، إن مجموعة مردوخ الإعلامية هي واحدة من ثلاث مؤسسات عالمية تحرص إيباك على شكرها لدعمها إعلاميًا واقتصاديًا لإسرائيل.

هذا وإن من المعروف أن نشر الإعلانات الدعائية في بلاد الغرب مكلف جدًا لسببين، الأول أن عقيدة الاقتصاد في بلاد الغرب تقوم على الدعاية للمنتجات، وشيء عادي أن تعتمد أي مؤسسة أو شركة أو مصنع من ناتج الدخل السنوي ما يعادل أربعين بالمائة في بعض الأحيان كمصاريف للإعلان، الثاني أن الإعلام الصهيوني في الغرب يدفع أسعارًا خيالية لوسائل الإعلام المحلية لإبقائها مشغولة بما له علاقة بالكيان الصهيوني كنوع من الثقافة النفسية والتربية للمواطنين لكي لا ينسوا ما تود الصهيونية أن تبقيه في ذاكرتهم مثل تعامل إسرائيل مع الفلسطينيين وبطشها بهم يعتبر دفاعًا عن النفس، لهذا ربما من الضروري الإشارة إلى لماذا تدفع المؤسسات والشركات المؤيدة للصهيونية بسخاء لوسائل الإعلام لكي تكون الأخيرة موالية للصهيونية، فقد يستغرب البعض منا وقد يتساءل من لا يعرفون عن النظام الضريبي في الدول الديمقراطية أو في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً، النظام الضريبي هناك تصاعديًا وعند رقم معين للدخل السنوي للفرد أو للشركة ما يأتي من ربح أو دخل بعد ذلك يكون للضريبة (دخلاً للدولة)، لذلك يتساوى للفرد أو المؤسسة التي تتجاوز أرباحها السنوية سقف الحد الأعلى إذا كانت تدفع الفائض للدولة على صورة ضريبة أو تبدده على صور مصاريف مختلفة منها أجور الإعلانات، لذا شيء طبيعي أن يُذاع برنامج في الراديو أو التلفاز ويلصق به بأن الشركة الفلانية أو المصنع الفلاني تم بواسطته إعداد هذا البرنامج أو الحلقة.

من هنا نجد أن الإعلام الصهيوني النافذ الأفكار في الغرب، جعل الدول الغربية ومنظمات حقوق الإنسان، لا تجد ما تقوله للفلسطينيين المطالبين بحقوقهم سوى لا جدوى من المقاومة، وهي بذلك تقول للعرب بطريقة غير مباشرة أن إسرائيل ليس وحدها في الميدان حين الضرورة، ومن ثم تعمل بهكذا أسلوب على تحطيم أي أمل في النفوس بإمكانية تغيير الواقع، حينما نتحدث عن الإعلام الصهيوني فنحن لا نقصد مدحه، وإنما فضحه وبعث الحوافز من أجل مواجهته، لأنه ليس

أفضل من التعلم من الأعداء عن طريق كرههم ومحـــاربتهم بـــنفس أســـلحتهم، فالإعلام الصهيوني لا يترك صغيرة أو كبيرة إلا ويحاول توظيفها والاستفادة منها حتى ولو بربح قليل، لو أخذنا مثلاً موضوع أسر الجندي الإسرائيلي الذي اعتقلته حركة المقاومة الإسلامية حماس قرب قطاع غزة، لما كان خطف حماس للجندي الإسرائيلي "جلعاد شليط" بزيه العسكري لا يترك حجة للإسرائيليين بـــأن يقولـــوا شيئًا للعالم لاتهام الفلسطينيين بالهمجية والإرهاب بسبب أن المبـــرر الأخلاقـــي موجود بين عدوين لدودين يعرف العالم كله بذلك، راحت إسرائيل تســـوِّق عبـــر آلتها الإعلامية، بأن اختطاف الجندي الإسرائيلي تم في المنطقة التـــي لا تحتلهـــا إسرائيل، وأن الجندي كان يقف على أرض إسرائيل وليس في قطاع غزة، لهـــذا نرى حتى أن عملية أسر الجندي الذي كانت مجموعته تتعامل مع المقاومين فـــي قطاع غزة وكانت تدمر بيوت الفلسطينيين وتتلـــف المحاصـــيل، يـــود الإعـــلام الصهيوني أن يجعل إسرائيل الطرف المعتدى عليه، وهي الضحية التي تدفع الآن ثمنًا هو الجندي الأسير، وبذلك فالإعلام هنا يُخفي أن كل فلســـطين محتلـــة، ولا نستغرب حينما طالبت آلة الغرب الإعلامية بإطلاق سراح جلعاد شاليط حتـــى أن رؤساء الدول الذين يعتبر وقتهم ثمينًا، رأيناهم كيف كان الواحد منهم يسافر مـــن بلده إلى الشرق الأوسط لأجل أن يقابل أحدًا يمكن أن يتحدث معه عن موضـــوع إطلاق سراح الجندي الصهيوني، الرئيس الأمريكي السابق "جيمي كارتر" جاء إلى الشرق الأوسط بحجة الحديث عن السلام بين سوريا وإســـرائيل، وحينمـــا قابـــل الرئيس الأسد رئيس سوريا طالبـــه بالتوســـط لـــدى حمـــاس لإطـــلاق الأســـير الإسرائيلي، وفعل نفس الشيء حينما قابل رئيس المكتب السياسي لحركة حماس "خالد مشعل"، وأن الرئيس "ساركوزي" رئيس فرنسا فعل نفس الشـــيء وحـــاول لدى أكثر من زعيم عربي بالنسبة لإطلاق الأسير الإسرائيلي، المؤسف له أن فشل الإعلام العربي والتحيز الغربي لإسرائيل جعل الجميع ينسون أن إسرائيل تعتقل ما يزيد عن أحد عشر ألفًا من الأسرى الفلسطينيين الذين تسميهم إرهابيين، ولا أحد في الغرب يهتم بإطلاق سراحهم.

إن الإعلام الصهيوني لا ينام، ولا يدخر وسيلة ولا يوفر وقتًا ولا صغيرة أو كبيرة إلا ويحاول الاستفادة منها، خذ مثلاً ببجاحة كبيرة وبمكر وخبث، تقوم إسرائيل بخداع العقل العربي بين آونة وأخرى، فنسمع أنها قد أمرت جيشها بإزالة المستوطنات غير الشرعية من أراضي الضفة الغربية، وكأن هناك مستوطنات شرعية وغير شرعية على الأراضي الفلسطينية، الإعلام الصهيوني حقيقة يتلاعب بأسماء ونوعية المستوطنات لأجل أن يتعود العقل العربي على أن وجود المستوطنات شيء طبيعي من حيث المبدأ، ويحاول أن يروض العقل العربي على أن هناك مشكلة صغيرة فقط هي المستوطنات غير الشرعية، وأنها المشكلة التي يمكن بحثها.

ومثل هكذا أمور أيضًا ما يطلقه الإعلام الصهيوني على الضفة الغربية وقطاع غزة، فحينما أعلنت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م كان ما زال وجود فعال للإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية في العالم، لذلك كانت إسرائيل تتمثل بهما لكي تحوز على دعمهما فكانت تُطلق على ما تُنشئه من قرى ومناطق سكنية في فلسطين بالمستعمرات، لأن الإنجليز والفرنسيين كانوا يستعملون هذه الأسماء في البلاد التي كانوا يحتلونها، وبعد أن أصبحت أمريكا هي المهيمنة عالميًا استبدل الإعلام الصهيوني تسمية المستعمرات بأن أطلق عليها، المستوطنات! إن التحول من تسمية المستعمرات إلى المستوطنات كان تمثلاً بما تأسست عليه دولة الولايات المتحدة الأمريكية بعد الاستقلال عن بريطانيا حينما بنى الأمريكان المستوطنات على حساب أراضي الهنود الحمر.

وليس هذا فحسب بل إن إسرائيل راحت تطلق الآن على الضفة الغربية وقطاع غزة اسم "المناطق"، وهي لا تعني بالتسمية أن يقبلها العرب بل هي أيضًا ما زالت تخاطب الوجدان الأمريكي والغربي بصفة عامة، فالتسمية لا يجب أن نأخذها على عواهنها، إنما الإعلام الصهيوني يقوم عليه علماء نفس وعلماء اجتماع ومخططين متمرسين في علم النفس، إن استعمال اسم المناطق للضفة وغزة هو توافق مع المفهوم لبلاد العالم الجديد أمريكا الشمالية واستراليا وما

شابه، نجد مثلاً إنه يوجد مناطق كثيرة في شمال أمريكا يطلق عليها منطقة أو مناطق مثل منطقة "يوكون" و"منطقة الشمال الغربي" بكندا، وتُعرَّف المنطقة في دولة كندا مثلاً، بأن بها سكانًا ولهم حياة متجانسة ويعيشون تحت حكم ذاتي، إلا أنهم لا يرقون بأن يكون لهم كيان مستقل، لذا فهم يعيشون داخل كيان دولة كبرى هي المسئولة عن أمورهم الخارجية، وفي نفس الوقت ليس لهم حق في الدولة التي تقع مناطقهم فيها.

كما أن حرب المصطلحات كما يشير إلى ذلك بعض الإعلاميين العرب، لا تتوقف عند ما يُطلقه الصهاينة من أسماء على المستعمرات والمستوطنات وعلى أسماء قطاع غزة والضفة الغربية ومناطق فلسطين المختلفة بصفة عامة، إنما هو يشمل أشياء كثيرة لها علاقة بالصراع العربي الإسرائيلي والحق الفلسطيني التاريخي على وجه الخصوص، من ذلك مثلاً أن الإعلام الصهيوني ما فتئ يتلاعب بالعبارات وصكوك النصوص والمعاني، فعبارة "حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها" مثلاً، هي عبارة في غير محلها إذا تذكرنا أن إسرائيل هي قوة احتلال حسب المواثيق الدولية، لذلك إن إسرائيل تستغبي العالم أو أن الرأي العام العالمي مُكمم الأفواه إذا كان يفهم المعنى الحقيقي.

كما أن مصطلح "وقف إطلاق النار" الذي كثيرًا ما يتداوله العرب والإسرائيليون، مصطلح يُعطي انطباعًا وكأن الحرب بين الفلسطينيين وإسرائيل تحدث بين جيشين نظاميين، بينما الحقيقة مغايرة تمامًا، فالاحتلال يمكنه أن يتوقف عن العدوان متى شاء، والشعب المحتل لا يتمشى معه صك وقف إطلاق النار، لأن من حقه متى وجد الفرصة أن يقاوم الاحتلال ما دام الاحتلال قائمًا، وأن استخدام إسرائيل مصطلح "البنى التحتية للمقاومة" هو تعبير لا يعني معناه الظاهر، فالمقاومة الفلسطينية مثلاً لا يوجد لديها مستودعات ومخازن سلاح ومصانع عسكرية، فبناها التحتية هو صمود الشعب الفلسطيني ووجود الفتيات والفتية الذين هم وقود الثورة الدائم على الاحتلال، لذا إن تحطيم البنى التحتية هنا الذي

يدَّعيه الإسرائيليون له معنى واحد، هو أن إسرائيل تعني قتل البشر حتى تكسر شوكة الفلسطينيين!

إن من الزيف الإسرائيلي للحقيقة، أن الدولة العبرية عملت على تسمية الكثير من القرى والمدن العربية في فلسطين وأعطتها أسماء عبرية، فلا غرابة إذن لو عرفنا أن حتى اسم درة الكيان الصهيوني مدينة "تل أبيب" فإن اسمها العربي الحقيقي والأصلي هو "تل الربيع" وقس على ذلك من تسميات لمدن وقرى عربية تم احتلالها عام ١٩٤٨م! هل هناك شك أن تكون إسرائيل رافضة لقبول سلام حقيقي مع الفلسطينيين، وأن ما يتغنى به الإعلام الصهيوني عن السلام والدعوة له، ليس أكثر من ملهاة للعرب، أولاً لكسب الوقت لمزيد من التهويد وبناء المستوطنات، وثانيًا للإبقاء على الدعم الغربي لإسرائيل من ناحية أخرى، إن أكبر دليل على رفض إسرائيل للسلام، هو رفضها تخطيط حدودًا جغرافية لها فتقول عن فلسطين كلها أرض إسرائيل، كما أنها ترفض الحدود الديمغرافية فتقول عن كل من يقيمون على أرض فلسطين شعب إسرائيل، إن إسرائيل في الحقيقة تعمل على تزويد الآلة الإعلامية الصهيونية بالوقود اللازم كلما كاد وقودها أن ينفذ من الأفكار، لهذا هي تتحدث عن السلام وتبقي الحدود مع الفلسطينيين والعرب مشتعلة للادعاء بعدم استقرار المنطقة وعلى الغرب أن يظل يُقدم الدعم لها لكي يضمن مصالحه في المنطقة، وألا ينسى بأنها جزء عضوي من هذا الغرب.

عشية قيام إسرائيل عام ١٩٤٨م حدث إن اختلف الصهاينة على أمر واحد، هو تعيين حدود للدولة الصهيونية، ويومها حسم بن جوريون الأمر وقال إنه ليس مع الرأي الذي يدعو لتحديد حدود الدولة متسلحًا بحجة أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تضع حدودًا لها حينما أعلنت الاستقلال، وتم الاقتراع على هذا الرأي بين الزعماء الصهاينة وفاز رأي بن جوريون.

إن الفكر الاستراتيجي العميق لا بد أن يأتي بإعلام على مستواه، بل هذا هو ما حدث بالفعل في إسرائيل حينما وضع زعماؤها حججهم ومبرراتهم وأضاءوا

طريق دولتهم وانطلقوا يضمرون للآخرين ما لا يقولون علنًا في الإعلام، إن إسرائيل دائمًا تتحدث عن السلام العادل أكثر من العرب، ولكن هل حقيقة أن إسرائيل جادة في سلام عادل، إسرائيل تعلم جيدًا أن السلام العادل هو الحقوق الكاملة للشعب الفلسطيني، بمعنى أن وجودها كدولة هو نفي لحقوق الفلسطينيين، لذا فإن إسرائيل منذ البداية تمسكت بشعار، لا يوجد شعب اسمه الشعب الفلسطيني، وأن فلسطين أرض خالية من السكان، والزعماء الصهاينة بعد قيام الدولة تحدثوا برأي واحد لا لكيان فلسطيني بجانب الدولة الصهيونية لأن أحدهما هو نقيض للآخر، فوجود دولة فلسطينية معناه أن الكيان الإسرائيلي مُرشح للزوال ولو بعد حين وهذا كان فهمهم منذ البداية، لذا فإسرائيل في إعلامها ظلت تُنكر وجود الفلسطينيين كشعب منطلقة من رأي الزعيم الصهيوني بن جوريون، بأن اليهود كيان عالمي، والعرب أيضًا كيان عالمي، وما يسمى بالفلسطينيين فهم عرب وحسب، وهكذا بقيت وما زالت تراوغ في موضوع السلام، المُبكي هو أن الصهيونية تعترف ضمنيًا بكيان قومي عربي والعرب للأسف يتجهون حثيثًا نحو الإقليمية!

لهذا، لا يملك المرء إلا أن يُقر بتفوق الإعلام الصهيوني، لأنه إعلام ممنهج ومتوفر له كل الخبرات والوسائل، ولهذا فإنه يستطيع كما يريد أن يقلب الحقائق، وأن يقزم قضية أو خبر، وأن يُضخم شيء إلى الحد الذي يجعل البشر يذرفون الدموع، وهنا يحضرني ذكر أنه خلال فترة الانتفاضة الفلسطينية التي اندلعت ضد الاحتلال سنة ١٩٨٧م وامتدت إلى ست سنوات، كان قد أبدع الإعلام الغربي المحايد في فرض المشاهد المأساوية التي كان يتعرض لها الفلسطينيون العُزَّل رجالاً وأطفالاً ونساءً ومسنين، في تلك الأيام مع عدم توفر شيء كمادة للإعلام الصهيوني لكي يضخمها ضد الفلسطينيين، كون أهالي الأرض المحتلة كانوا لا يملكون وسائل قتالية سوى الحجر، وكانت وسائل الإعلام في الغرب مضطرة أن تذيع أخبار الانتفاضة عملاً بمبدأ حرية الإعلام ولو لمرة واحدة في اليوم على الأقل حتى لا تعتبر مخالفة لقانون الإعلام، في تلك الأيام كان قد مضى حوالي عام على إقامة أسرتي في كندا، وكنتُ كغيري ممن يعنيهم ما يحدث في فلسطين

أتابع الأخبار ساعة بساعة حتى بعد منتصف الليل يوميًا، وكنتُ أظلُ متحفزًا أقلب قنوات التلفاز باحثًا عن خبر أو تحليل أو أتصفح الصحف المحلية واقرأ التحليلات ناشدًا أن اعرف إلى أين يمكن أن تصل الأمور مع الانتفاضة الفلسطينية، كنتُ أشاهد الدماء تنزف من الفلسطينيين بينما الجنود الإسرائيليون يزجرون الأطفال والمراهقين من الفلسطينيين ويضربونهم ويقبضون على بعضهم ويعتقلونهم ويحشرونهم في السيارات التي كانت تنقلهم إلى معسكرات الاعتقال.

ولما كنا نسهر إلى ساعات متأخرة من الليل ونحن نتابع الأخبار بسبب القلق على حياة الناس في فلسطين، في البداية كنا نظن بأن القضية الفلسطينية دخلت وجدان الإنسان الغربي وأنه سرعان ما سيصبح مسانداً للحق الفلسطيني، إلا أن الأمر لم يتغير بسبب بسيط، كانت كثير من قنوات التلفاز في كندا وفي بلاد الغرب بصفة عامة، كانت في كل يوم تضع أفلامًا وثائقية بين برامجها عن الهولوكوست اليهودي أو ما يُطلق عليه بالمحرقة النازية، كنتُ كمشاهد جديد لمثل هكذا أمور احزن وأشفقُ كثيرًا على ضحايا النازية خصوصًا وأن الإخراج الإعلامي الممتاز، والتصوير والإعداد وتتابع المَشَاهد، وصوت المعلق الذي كان ينسجم مع الحدث، وكذلك الموسيقى التصويرية التي تتحدث مع الصور والصوت فتدخل الروح كنسمة حزن تغطي كل شيء في إحساس البشر، كان هذا يجعلنا نتأثر بعمق لما حدث لليهود على يد النازية إلى حد أننا نشعر بأن ما يتعرض له الفلسطينيون على يد الجيش الإسرائيلي إنما هو شيء يسير بالمقارنة لما حدث لليهود، كانت المشاهد والصور تترك أثرًا بليغًا في النفوس بسبب الإخراج والتفوق الإعلامي الصهيوني الذي يبث للمواطن في الغرب، والآن إذا كنا نحن الذين نكتوي بنار اليهود، نحزن ونشفق على مأساتهم فما بالك بالمواطن الغربي الذي لديه أكثر من سبب للوقوف بجانب إسرائيل ضد العرب.

قيل عن أحد السياح الأمريكان من الذين زاروا إحدى البلاد العربية، وكان أستاذًا جامعيًا متخصصًا بالآثار، قال حينما اطلع على الآثار في البلد العربي وشاهد عراقة تاريخ ذلك البلد وبدت عليه الدهشة، سأله أحد المواطنين من ذلك البلد

ممن لهم علاقة بالآثار عن سر اندهاش السائح، فقال العرب أمة عريقة ولكم تاريخ فانظر هذه الآثار وعمقها في السنين، وتدرج الحديث مع السائح عن قضية العرب المركزية فلسطين، فسأل العربي السائح الأمريكي عنها، فكانت إجابة الأمريكي بأن ليس لديه أية فكرة عن تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، ولا عن تاريخ فلسطين ولا عن تشريد الشعب الفلسطيني من أرضه، وإنما الفكرة التي يحملها من وسائل الإعلام في بلده، هي أن الأرض التي أقيمت عليها (دولة إسرائيل) هي أرض يهودية وهي أرض أجداد اليهود التي أمرهم ربهم بالعودة إليها، وأن ما يُسمى بالفلسطينيين فهم بدوٌ رُحَّل استقروا في هذه المنطقة، فقبِلَ اليهود العيش معهم، إلا أن الفلسطينيين حاولوا الاستئثار بقسم أكبر من الأرض المخصصة لهم فاضطر اليهود أن يدافعوا عن أنفسهم، إذا كانت تلك هي معلومات المواطن الأمريكي الأكاديمي عن الصراع العربي الصهيوني فما بالك بالناس العاديين في الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا يدل على مكانة الإعلام الصهيوني المتغلغل في الحياة الأمريكية الغربية المسكونة بثقافة الاستهلاك التي يهيمن عليها قطاع ضخم من رأس المال اليهودي الذي لا يتوانى عن تقديم الدعم لكل ما يخدم إسرائيل.

إن نفوذ الإعلام الصهيوني يوازي النفوذ اليهودي المالي في أمريكا وأوروبا، فلنا أن نُلمِّح فقط وليس تفصيلاً عن الأزمة المالية العالمية التي هزت العالم في النصف الثاني من سنة ٢٠٠٨م، وكيف أن الاقتصاد العالمي كاد أن ينهار كُليًا، تلك الأزمة التي تفجرت في أمريكا فدمرت بنوك ومؤسسات وشركات وما له علاقة، فهل عرف العالم مثلاً بأن "بنك الاحتياط الفدرالي الأمريكي" الذي يهيمن على الاقتصاد الأمريكي، والذي يدير ويوجه السياسة الاقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية، هو البنك المركزي الوحيد في العالم الذي لا تملكه الدولة، كل البنوك المركزية في جميع الدول تملكها الدول أما هذا البنك فتملكه مجموعة من العائلات الثرية التي أغلبها عائلات يهودية، فإذا تذكرنا أن البنوك الأوروبية التي يملكها اليهود هي من بنى المستعمرات اليهودية في فلسطين قبل قيام إسرائيل

ومن بنى الجامعة العبرية في القدس، ومن انشأ الصندوق القومي اليهودي والوكالة اليهودية العالمية، لو تذكرنا هذا فيمكننا أن نتصور أثر بنك الاحتياط الفدرالي في الأزمة المالية العالمية لسبب في نفس يعقوب، والله اعلم!

ما زال الإعلام الصهيوني يرفع عصا تهمة معاداة السامية في وجه كل من يحاول فضح الممارسات الصهيونية، حتى لو كان مبرر الصهيونية هو صدور قرار ضدها عن أحد المؤسسات الدولية كمجلس الأمن أو الجمعية العمومية أو محكمة العدل الدولية وغيرها، فإذا لم يعجب إسرائيل قرار ما رفضته، وراحت الآلة الإعلامية الصهيونية تُشيع وتؤلب الرأي العام في الدولة على زعيم تلك الحكومة الذي تبنى أصلاً الاقتراح الذي تم التصويت عليه وحاز على الموافقة، وإذا حدث أن حكومة أوروبية رفضت مثلاً استقبال أحد زعماء إسرائيل كنوع من الاحتجاج على ممارسات إسرائيل ضد الفلسطينيين، فإن الإعلام الصهيوني المتمكن سرعان ما يبدأ التلميح بتهمة معاداة السامية كوسيلة ضغط وإساءة للزعيم أو الحكومة المعنية، وليس هذا فحسب بل إن النفوذ الإسرائيلي يستطيع أن يتحدى زعيم أي دولة أوروبية في بلده الذي هو حاكم عليه، وذلك عبر الصحافة المحلية أيضًا وبواسطة المؤسسات المالية وبالطرق المختلفة، وحتى في البرلمان الذي عادة ما يكون به من الأعضاء من هم متصهينيين أكثر من الصهاينة أنفسهم لحاجتهم إلى الدعم الإعلامي والمالي اليهودي.

وهنا لا بد من التعريف بمعنى اللا سامية في الإعلام الصهيوني! يقول الدكتور أيمن أبو شعر، "الساميون، كما هو معروف، هم أبناء سام بن نوح عليه السلام وهؤلاء سكنوا الجزيرة العربية ومناطق سورية الطبيعية في حين سكن الحاميون - أولاد حام بن نوح - في أفريقيا، وسكن اليافثيون أبناء يافث في الشرق الأقصى والأدنى القديم وشكَّل معظمهم الشعوب الهندو أوروبية، وبهذا المعنى تكمن الجذور القديمة فيما يسمى بالعداء للسامية - افتراضيًا - لدى أبناء يافث وحام تجاه أبناء سام، أي المواقف ضد العرب أنفسهم باعتبارهم من أبناء سام، وهناك عبارة شعبية دارجة تقول إن اليهود هم أبناء عمومتنا، ولكن الأمر اختلف

جذريًا منذ القرن التاسع عشر حيث تقوقع مفهوم هذا المصطلح ليغدو رصدًا للنفور من اليهود تحديدًا".

لهذا يمكن القول بإن مصطلح اللا سامية يُقصد منه العداء للجنس السامي، وقد اختص به اليهود بسبب تواجدهم في أوروبا وروسيا وتواصلهم الديني مع المسيحية التي أتت بعد اليهودية، لذا راحت آلة الإعلام الصهيونية تستعمل هذا المصطلح كسبب لتخويف من يوجِّهون انتقادًا لما تفعله الدولة الصهيونية أو المتنفذين اليهود من أباطرة المال والاقتصاد في أوروبا وأمريكا حتى أصبحت اللا سامية وسيلة غسيل دماغ ثقافي عالمي، وأضحت اللا سامية تعمل في عقول الكُتَّاب والإعلاميين والمفكرين في العالم، وفي بلاد الغرب خاصة، وسيلة رقابة داخلية، وعملت على زرع إرهاب فكري في النفوس جعلت الكثيرين منهم يفكرون طويلاً قبل المساس بإسرائيل، في كثير من سنين الحقبات الأخيرة من الزمن الحديث، استطاع الإعلام الصهيوني أن يوجِّه تهمة معاداة السامية إلى كثير من الشخصيات الإعلامية والسياسية في العالم حينما كان يقترب هؤلاء من توجيه أي اتهام لإسرائيل.

"آلان مينارغ" مدير الإذاعة الفرنسية الدولية تم طرده من العمل إثر إصداره كتابًا تحت عنوان "جدار شارون" انتقد فيه إسرائيل، المفكر الكبير "روجيه غارودي" البريطاني المعروف اتُّهِمَ أيضًا بمعاداة السامية لأنه تحدث بصوت عالي عن فظائع إسرائيل في لبنان وفلسطين وفي عام ٢٠٠٩ فمُنِعَ من زيارة كندا، رئيس وزراء إسرائيل السابق "أريل شارون" اتهم الشعوب الأوروبية سنة ٢٠٠٣م في تصريح له بمعاداة السامية على إثر نشر استطلاع يقول بإن إسرائيل تشكل أكبر تهديد للسلام العالمي.

هذا، ومن الجدير بالذكر أن مصطلح اللا سامية قد ساهم في إبقائه متداولاً في الإعلام هم اليهود أنفسهم، إن كثيرًا من زعماء الصهيونية كانوا يدفعون التجمعات اليهودية إلى عدم الاندماج في المجتمعات التي أقاموا فيها، وكانوا يحضون اليهود على العيش في تجمعات خاصة بهم حتى إن ذلك قد لفت الأنظار

إليهم مما ساعد على إشاعة مصطلح اللا سامية عند الأوروبيين، وبذلك ضمنت الصهيونية أن يتطلع اليهود الأوروبيين للاندفاع نحو الهجرة إلى إسرائيل، لقد لعب نشر بروتوكولات حكماء صهيون إثر الحرب العالمية الأولى دورًا كبيرًا في الحذر من اليهود، وكان أول من أشار إلى مصطلح اللا سامية هو الكاتب الألماني "وليم مار" عام ١٨٧٩م في كتابه " انتصار اليهودية على الألمانية من منظور غير ديني"، ثم تعمقت هذه النزعة بدعم من "بسمارك" مستشار ألمانيا في البداية في ألمانيا، ثم انتشرت في أوروبا، جاء هذا الكتاب بعد الحرب الفرنسية البروسية في سنتي ١٨٧٠ و١٨٧١م التي أثقلت كاهل المتمولين الألمان الذين ألقوا باللوم على اليهود ودورهم في تلك الحرب، ثم أخذ مصطلح معاداة السامية يعني في اللغات الأوروبية معاداة اليهود، أي جرى الخلط بين اليهود الساميين كعِرق وبين اليهود المؤمنين باليهودية كدين.

لقد ساهم اليهود أنفسهم في ترويج مصطلح اللا سامية، فهذا الكاتب الصهيوني "حاييم برينر" وقد صف اليهود في الشتات بأنهم مرضى ومرابون وأقرب إلى الكلاب القذرة، واعتبر المفكر الصهيوني "يعقوب كلاتزكين" أن اليهود في الشتات بلا جذور وحياتهم مزيفة وأنهم جسم نشاز في المجتمعات التي يعيشون فيها، حتى إنه دعا عام ١٩٢٥ إلى دعم المنظمات المناهضة للسامية، إن الكثير من الكُتَّاب الصهاينة شنوا حملات مذهلة ضد يهود الشتات ووصفوهم بأنهم طفيليون وقذرون وعبيد وبغايا وحياتهم حياة كلاب تثير الاشمئزاز مما كان يمكن أن يكون تهمة ساطعة للعداء للسامية لو أنها جاءت على لسان غيرهم، لكنها كانت تمرر لأن لها أهدافًا محددة وهي دفعهم إلى الرحيل إلى إسرائيل، وهكذا يتضح أن فكرة العداء للسامية كما خدمت الفكرة الصهيونية في الماضي فهي تخدم إسرائيل في الزمن الحالي.

إن من اللافت للنظر أيضًا أن معظم المؤتمرات الدولية التي تُعقد من أجل السلام أو دعمًا لحقوق الفلسطينيين كلما أثيرت أزمة ما، فإننا نجد مشاركين فيها من الرموز اليهودية المعروفة عالميًا ممن يدَّعون ظاهريًا بتأييد الفلسطينيين، وعادة

ما يتبوأ هؤلاء مقاعد مرموقة ومميزة في تلك المؤتمرات بافتراضهم منشقين عن الصهيونية، فيتاح لهم المشاركة والمساهمة في صياغة ما يصدر عن المؤتمرات من قرارات، وما هؤلاء في الحقيقة إلا إنهم جزء من الخداع الصهيوني الإعلامي الذي يهدف إلى التخفيف من حدة التهم والقرارات التي قد تصدر عن المؤتمرات، فعلى الأقل إن وجودهم هناك هو لتخجيل المشاركين حتى لا يضعون كل إمكانياتهم الفكرية ضد إسرائيل، هذا عدا أن هؤلاء من النشطاء هم جواسيس فكر ضد العرب وكيف يفكرون تجاه الصهيوينة بصفة عامة، ودورهم لا يقل إعلاميًا عن دور الإعلام المُعادي الصهيوني الرسمي!

لقد تلقف الصهاينة مصطلح معاداة السامية أو اللا سامية لكي يبنوا عليه مواقف سياسية دولية، سواء باسم الهولوكست أيام الحكم النازي لألمانيا أو بجمع كل ما تعرَّض له اليهود في التاريخ منذ العصور القديمة لتوضع في إطار معاداة السامية مع العلم بأن قسمًا لا يُستهان به من يهود العالم غير متحدّر من جزيرة العرب وطن سام، وذلك لسبب بسيط هو أن العقيدة اليهودية تُبيح زواج المرأة اليهودية من غير اليهودي، ولما كان تعريف اليهودي هو من يولد لأم يهودية، فأين الصفاء العرقي ليهود العالم لكي يقال إن كلهم ساميون.

لهذا، فإن الإعلام الصهيوني لم يأت من فراغ أو إنه شيء مُكمِّل لمشروع الدولة الصهيوينة بل كان الركن الأساسي الذي خدم الحركة وما زال يقوم بدور فعال، لقد أدرك اليهود منذ بدايات التفكير بالوطن القومي حتى حينما كان هذا مجرد كلمات وجمل وعبارات كان يقولها اليهودي أثناء تواجده في روسيا أو غيرها من الأوطان، فبفضل الإعلام المنظم أضحت تلك الشعارات مباديء أخذت مكانتها في وجدان اليهودي وصارت ترقى إلى التقديس.

يقال إن أول تفكير لوطن قومي لليهود كان بعد أن تم طردهم من القدس على يد الرومان سنة ١٥٣م، وعلى إثر حدوث مذبحة لليهود في روسيا القيصرية سنة ١٨٨٢م وهجرة عدد لا بأس به منهم إلى دول أوروبا الغربية، وما لاقوه بعد ذلك من عنصرية على يد الأوروبيين، لهذا راح فريق منهم يدعو إلى التكتل

والبحث عن حل، ومنذ ذلك الحين أدرك اليهود فاعلية الدعاية والإعلام حيثما وُجِدا.

إن الكتابات والدعاوى التي كانت تدعو اليهود إلى التكتل جعلت لليهود صوتًا صار يُسمع في ألمانيا وفي بريطانيا ثم في فرنسا والنمسا والدول الأخرى، وتشجع أغنياؤهم وراحوا يتحدثون باسم الذين يعيشون في الجيتوات (جمع جيتو)، وصاروا يلمحون بضرورة إيجاد وطن قومي لليهود على أي أرض يمكن أن يحصلوا عليها، ومنهم من صار يطالب بالعودة إلى فلسطين لأجل أن تكون الوطن القومي.

في روسيا صار بعض اليهود يضعون شعارات أخذت مواقع النبوءات الدينية عند العامة، مثل "من سار أربعة أمتار في أرض فلسطين خصه الله بمكان في الجنة"، وقولهم، "أولى بك أن تعيش في صحراء فلسطين من أن تسكن قصرًا بعيدًا عنها"، لكن اليهود لم يكتفوا بالتمني وبالحديث مع أنفسهم، إنما سعوا لدى الدول المتنفذة وجعلوها تبحث المشكلة اليهودية وتبارك تأسيس الحركة الصهيونية العالمية، بعد ٢٠ عامًا على انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي الأول عام ١٨٩٧م، تمكنوا من الحصول على وعد بلفور، وبعد خمسين عامًا أقاموا دولة إسرائيل، وبعد سبعين عامًا أصبحت إسرائيل دولة ذرية، لكنهم لم ينسوا أهمية الإعلام ودوره في خدمة الدولة الصهيونية.

وعليه فإن إسرائيل انتقلت بثقلها الإعلامي والمادي إلى الولايات المتحدة بعد حرب ١٩٥٦م حينما أدركت حجم النفوذ الأمريكي المتنامي الدولي، فتحول ثقل الحركة الصهيونية من انجلترا وأوروبا عمومًا بعد أن وجدت أن الاستظلال بالولايات المتحدة الدولة العظمى الأولى، لقد اعتمدت الصهيونية في دعايتها في الولايات المتحدة على وتر حقوق الإنسان، وركزت على دعوى قتل الحكم النازي لليهود، واستغلت الانتخابات الأمريكية واستعملت أصوات اليهود في الانتخابات الأمريكية، حتى أن بعض مستشاري الرئيس الأمريكي "هاري ترومان" حينما قاموا بتقديم نصيحة للرئيس بأن يُبقي نوع من التوازن بين تأييده لليهود وعلاقة

أمريكا مع العرب، كان رد الرئيس الأمريكي، "وهل للعرب أصوات في الانتخابات الأمريكية"!

تستند الصهيونية في تجسيد أحلامها على ما تواجد من النبوءات والتشريعات في كتابها العتيد "التلمود"، كما تستند الصهيونية أيضًا إلى "بروتوكولات حكماء صهيون"، لهذا وضعت الخطة السرية للإعلام الصهيوني في العصر الحديث في اجتماع حاخامات اليهود الذي عقد في بودابيست عاصمة المجر عام ١٩٥٤م، يقال إن الاجتماع أوصى بإشعال حرب عالمية ثالثة للتمكين من السيطرة اليهودية على العالم، هذا ويجب التفريق بين اليهودية والصهيونية لأن اليهودية دين وحسب، أما الصهيونية فهي دين وقومية وهنا يكمن خطر الصهيونية بسبب أطماعها.

إن الإعلام الصهيوني إعلام مدروس ومنظم وله أهداف واضحة وثابتة، ويتناغم مع الاستراتيجية المتكاملة الدبلوماسية والعسكرية والاقتصادية لدولة إسرائيل بحيث تتحقق الأهداف ويكتسب الأنصار، يقول الدكتور "محمد ناصر" في موقع دنيا الرأي، "ومن هنا حدد الإعلام الصهيوني جماهيره في ست دوائر رئيسية هي: اليهودية العلمية أوروبا الغربية، أمريكا الشمالية، أوروبا الشرقية، أفريقيا وآسيا، أمريكا اللاتينية، وخصصت لكل جمهور استراتيجية إعلامية مناسبة وأعدت لكل منها برامج تطبيقية تتناسب مع كل جمهور على حدة".

بعد أن قويت شوكة الصهيونية في الولايات المتحدة، وأصبحت إسرائيل دولة، صار وجودها شرعيًا بعد أن دخلت عضوية الأمم المتحدة، صارت لا تتورع أن تتحدى من يكون من الشخصيات العالمية إذا وقف في طريق أهدافها، وأن تصفهُ بالمُعادي للسامية، التي أضحت السوط الذي تلوح به في وجه كل من ينتقد أو يشكك بنبوءة دنيوية قيلت في حق الحركة الصهيونية ودولتها إسرائيل، لم يُستثنى أحد من تحدي الصهيونية، سواء كان من ساسة الدول وزعمائها أو أساتذة الجامعات أو الفنانين أو الصحفيين أو المؤرخين أو الكُتَّاب، وغيرهم، لم يسلم من الصهيونية مثلاً "فورستال" وزير دفاع أمريكي سابق و"دورتي تومسون"

الصحفية، و"أرنولد توينبي" المؤرخ البريطاني الشهير، و"ايرنست بيفنا" وزير خارجية بريطانيا سابقًا، وهناك الرئيس الفرنسي "شارل ديجول" الذي قال عشية الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٦٧م "إن فرنسا ستعاقب من يبدأ الحرب"، ونفذ قوله وأوقف بيع السلاح لإسرائيل بعد أن ثبت بأنها من بدأ العدوان على العرب، لكن الصهيونية قامت قيامتها على ديجول، ولم يتركوه حتى أقاموا المظاهرات الطلابية ضده في فرنسا وأسقطوه في الانتخابات عام ١٩٦٨م رغم أنه أحد أبطال المقاومة العالميين خلال الحرب العالمية الثانية.

وأما رجل السلام الشهير، رئيس النمسا "كورت فالدهايم" الذي شغل منصب سكرتير عام الأمم المتحدة لدورتين متتاليتين، فقد حاصرته الصهيونية إعلاميًا على إثر مناصرته لحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني في الجمعية العامة للأمم المتحدة خلال عمله كسكرتير عام للأمم المتحدة، واستطاعت الصهيونية بعد ذلك أن تستصدر أمرًا من المحكمة الفيدرالية الأمريكية بعدم التصريح له بالقدوم إلى الولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن أصبح بالانتخاب الديمقراطي الحر مستشارًا للنمسا، وكل المحاولات التي قام بها الكثيرون من رؤساء زعامات عالمية لرفع الحظر عن كورت فالدهايم لزيارة الولايات المتحدة باءت بالفشل، وبذلك مُنع من حضور اجتماعات المؤسسات الدولية التي كانت تُعقد على الأرض الأمريكية رغم شعبية فالدهايم العارمة في النمسا، كل ذلك حدث تحت حجة أن كورت فالدهايم كان ضابطًا برتبة صغيرة في الجيش النازي حينما كان يخدم في اليونان وهو في العشرينات من عمره أثناء الحرب العالمية الثانية، والصهيونية في الحقيقة كانت تعاقبه على مواقفه من القضية الفلسطينية في الجمعية العامة وليس لأنه كان عسكريًا.

أما الرئيس الأمريكي "هاري ترومان" الذي أعلن اعتراف أمريكا بإسرائيل في نفس اليوم الذي أعلن فيه ديفيد بن جوريون قيام دولة إسرائيل، يقول الداعية الإسلامي الدكتور "محمد ناصر" في هذا، خلافًا لما يظنه الكثيرون فإن ترومان لم يرتمي طوعًا في أحضان الحركة الصهيونية بل إنه في بداية عهده كرئيس

للجمهورية أراد أن يقتفي آثار سابقه "تيدور روزفلت" في اتباع سياسة متوازية حيال القضية الفلسطينية، كان روزفلت قد اقتنع بأن العرب سيقاومون تهويد فلسطين بشدة، وأن المصالح الأمريكية في البلاد العربية ستتعرض للخطر في حالة انحياز الولايات المتحدة للجانب الصهيوني، وأما ترومان كما بيَّن في مذكراته "ناحوم جولدمان" رئيس المؤتمر اليهودي العالمي السابق، إذ كتب جولدمان يقول بإن ترومان بيَّن عدة مرات بأنه لا يرى أية وسيلة للخروج من المأزق الفلسطيني، لذلك فإنه يود الانسحاب من الموضوع كله، ومن ثم لجأت زعامة الصهيونية مع ترومان إلى أسلوب الترغيب والترهيب حيث أنهم رأوا في طرحه هذا مضرة تصيب صميم خطط الحركة الصهيونية.

بعد وفاة ترومان بعدة سنوات أذاعت "ابنته مارغريت" سرًا لم يكن يعرفه إلا القلائل، فقد ذكرت أن أباها استلم تهديدًا بالقتل إن هو لم يستجب للمطالب الصهيونية، مما يدل على أن الحركة الصهيونية استخدمت جميع أسلحتها في الضغط من التلويح بالمكافأة إلى التهديد بالقتل.

هذا، كما أن الرئيس الفرنسي "جيسكار ديستان" لم يسلم من هجوم الصهيونية، حينما قال خلال زيارة له لبلدان الخليج العربي سنة ١٩٨٠م بإن لا بد من إعطاء الفلسطينيين حق تقرير المصير، على إثر ذلك قامت وسائل الإعلام الصهيونية في أوروبا في انتقاد سياسة فرنسا في الشرق الأوسط، وراحت تدعو يهود فرنسا بعدم انتخاب المرشحين في الانتخابات النيابية الذين يعملون ضد المطالب الأساسية لأمن الكيان الصهيوني.

من ناحية أخرى، فقد برعت إسرائيل في استغلال الإعلام في مجالات كثيرة، وذلك بواسطة الخبراء الذين يرسلون إلى الدول النامية، ولا يتورعون عن ممارسة الأعمال البسيطة وتقديم الإنسان الإسرائيلي كصديق محب للآخرين عن إعداد مسبق، ووجدت إسرائيل أيضًا أن ما يخدم قضيتها هو الاشتراك في الأنشطة الرياضية العالمية والحفلات الفنية والسينما وإقامة المعارض وتبادل الزيارات وإلقاء المحاضرات في الدول الصديقة، وقد وجدت إسرائيل أن الاقتراب

من الآخرين والتحدث معهم من أنجح الوسائل التي تُقدم صورة جيدة عن إسرائيل.

من وسائل الدعاية الصهيونية في العالم، "المجلس الصهيوني الأمريكي"، وهو يتألف من عدة لجان مختلفة تُراقب كل ما يُنشر أو يذاع في وسائل الإعلام وفي السينما والكتب والتصدي له إذا لزم الأمر، كما أن اتحاد العمال في إسرائيل "الهيستدروت" هو جهاز يُسيطر على الحركة العمالية اليهودية في العالم، والهيستدروت يشترك في مؤتمرات الاتحادات العمالية الدولية وخصوصًا اتحادات العمال في الدول النامية، يقوم الهيستدروت مثلاً بتكريم الرؤساء الأمريكيين بإطلاق أسمائهم على اتحادات العمال التي ينشئها في الولايات المتحدة، ويمنح جائزة الإنسانية لأحد الرؤساء ممن له مواقف مميزة تجاه إسرائيل، كما يعمل على تدريب القادة النقابيين في المعهد الأفريقي الآسيوي للدراسات التعاونية العالمية، وينشد الهيستدروت توطيد العلاقة مع اتحادات العمال في الدول الإسلامية بهدف إقناعهم بأن الصراع هو مع العرب وليس مع المسلمين.

هذا، ومن وسائل الإعلام الصهيونية أيضًا، المؤتمرات الاشتراكية الدولية، وتهدف إسرائيل إلى إقناع الدول الاشتراكية بأنها مختلفة عن الدول الدكتاتورية التي حولها، وقد حضرت إسرائيل جميع مؤتمرات الاشتراكية الدولية وكان ديفيد بن جورين عضوًا بالحركة الاشتراكية، ومن أشهر رؤساء الاشتراكية الدولية بعد الحرب العالمية الثانية، مستشار النمسا السابق "برونو كرايسكي" وبالمناسبة هو يهودي أيضًا!

من أنشطة الإعلام الصهيوني للاستمرار في التوجيه والحشد، "معسكرات الشباب" التي تقام في إسرائيل للجنسين، والهدف هو إعدادهم عسكريًا بالإضافة إلى التوجيه والإرشاد، كما أن الأنشطة الشبابية تلعب دورًا هامًا في علاقة إسرائيل مع الدول كالأفريقية مثلاً، لقد حرصت إسرائيل أن تغزو دول أفريقيا إعلاميًا واقتصاديًا، فأرسلت الخبراء وتبادلت الزيارات وأقامت معسكرات للشباب ليس في إسرائيل فقط بل في الدول الأجنبية أيضًا، اتجهت إسرائيل بكثافة إلى القارة

الأفريقية لكي لا تظل إسرائيل معزولة، ذلك بعد أن سطع نجم الرئيس المصري جمال عبد الناصر حينما أصبح قطبًا بارزًا في حركة دول عدم الانحياز وراحت مصر تحتل مكانة مميزة عند معظم الدول النامية وأضحت إسرائيل في شبه عزلة، فكان أن توجهت إلى أفريقيا لفك عزلتها لتصنع توازنًا لما حققته مصر برئاسة ناصر من مكانة دولية.

هذا، ومن الجدير بالذكر، أن إسرائيل قد اهتمت بدول أمريكا اللاتينية أيضًا، فأقامت معها العلاقات وأصبح لها فيها نفوذ على إثر وجود الجاليات اليهودية الكبيرة التي لجأت إلى تلك الدول خلال الحرب العالمية الثانية حينما كان يتعرض اليهود للخطر في كل من ألمانيا والنمسا والمناطق التي كانت تحتلها ألمانيا، يبلغ عدد الصحف اليهودية التي تصدر في أمريكا اللاتينية كما يقول الدكتور محمد ناصر مائة وثلاث وعشرين صحيفة، كما أن الصحف اليهودية التي تصدر بالأسبانية والبرتغالية وهما اللغتان السائدتان في دول أمريكا اللاتينية خمس وخمسين صحيفة، هذا وتقف الصحف الكبرى في معظم دول أمريكا اللاتينية بوجه عام موقفًا مغرضًا من كافة القضايا العربية مدفوعة بالدعاية المضللة التي تروجها الصهيونية والدعاية المدفوعة الأجر.

إن كثيرًا من المفكرين العرب من ذوي الرؤوس الكبيرة ما زالوا لا يأبهون ولا يترددون في السعي الحثيث للوصول إلى معرفة حقيقة التفوق الإعلامي الصهيوني الذي يكاد يُغطي الكرة الأرضية، وهم يدركون أيضًا، إن الإعلام الصهيوني يقظ لكل صغيرة وكبيرة لكل ما له علاقة من قريب أو بعيد بالصراع العربي الإسرائيلي، وأن ذلك لا يغفل له جفن عين بل إنه بقي موظِفًا كل إمكانياته لأجل حماية الدولة الصهيونية، والعمل على خدمتها ونموها وازدهارها، فليس من باب الفخر لو قلنا إن النخبة من المفكرين العرب وصلوا بتحليلاتهم إلى معرفة سر النفوذ الإعلامي الصهيوني. وفي النهاية نجد أن ما وصل إليه المفكرون والباحثون العرب من هؤلاء، لا يعدو أن يكون كما هو عند المواطن العربي العادي الذي بات يعرف أن إسرائيل متفوقة عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا

وحضاريًا على كل العرب مجتمعين، ودروس الأيام التي نتعلمها من علاقتنا بإسرائيل هي مصدر المعرفة، وما التفوق الإعلامي الصهيوني سوى أنه مرآة للتفوق في المجالات الأخرى، خلاصة القول بإن الصهاينة يمتلكون الوسائل لهذا التمدد الإعلامي الذي شق طريقه منذ زمن لتهويد المعرفة والسيطرة على العقول بما فيها العقل العربي.

ولكن، ألا يلفت النظر إلى أن هناك أبوابًا مغلقة لم يدخلها العقل العربي حتى الآن لكي يعرف سر تفوق الإعلام الصهيوني، وسبب حصر المعرفة والريادة لليهود في هذا العالم أو ما يُطلق عليه تهويد المعرفة! هذا ومع الإجلال لكل المنظرين العرب الذين يقرون بالتفوق الإعلامي الصهيوني، لكنهم لم يصلوا بعد إلى إيجاد الحل العربي البديل لهذا التفوق، ولو كانوا قد وجدوا فإن الحل قد اصطدم بواقع التشرذم العربي، عدا عن الأسباب الكثيرة لهذا التشرذم، وبالتالي فإن العجز عن إيجاد الحل لتلك الأسباب هو ما جعل الرؤى لا تقبل التطبيق، فالمعرفة وحدها لا تكفي لتشخيص الحالة، لماذا لا نفترض بأن المفكرين العرب يأخذون بنات أفكارهم من آراء وكتب ليست هي بالضرورة المفترض أن ينهلوا منها أسباب المعرفة عن الآخرين، وربما تكون مثل تلك المراجع مخطوطات مشكوك في نزاهة واضعيها، فلو صح أن العرب يأخذون المعرفة من مصادر غير عربية، فإن الفكر الصهيوني الذي خطط ونفذ وعبَّر عن نواياه من خلال الإعلام المتفوق، صار يحتل أيضًا بؤر التطور في الثقافة العربية والإسلامية بحيث أنها فرضًا أصبحت ضمن طبق المعرفة الذي يُعد في مطابخ الصهيونية اليهودية دون أن نعرف نوع الطعام (المعرفة) الذي يقدم إلينا، هل هو من أصول منتجات حقيقية أم من مواد صناعية وكيميائية وتوليفات أخرى، تُعطيه النكهة الصناعية التي قد يعجبنا مذاقها!

وبمناسبة المذاق أو الطعم فهناك حكاية، والشيء بالشيء يُذكر، والحكاية لها مغزى كما يقولون، في أواخر ستينات القرن العشرين كنت قد أنهيت دراستي الجامعية، وتوجهت للبحث عن عمل في منطقة الخليج العربي، كانت الحياة في

تلك الأيام ما زالت بسيطة هناك، لكن بوادر النهضة العمرانية كانت تعلن عن نفسها بشق الطرق وبناء المساكن الشعبية والمدارس والدوائر الخدماتية، كانت مواد الأكل متوفرة ولكن ليس كلها، وحيث أن تلك البلاد تمتاز بمناخها الحار فكنا كل يوم نستهلك مرطبات وعصائر ومياه شرب بكميات كبيرة نسبيًا.

في أحد الأيام ذهبت إلى إحدى البقالات في البلدة التي كنت أقيم فيها في البلد العربي الخليجي لكي أتسوق، فلفت نظري في البقالة وجود كراتين كل واحدة تحتوي على أربع وعشرين علبة معدنية من عصير العنب البني أو الأسود اللون.. سميه كما شئت، في تلك الأيام لم أرى عنبًا طبيعيًا يباع في سوق الفواكه المتواضع في تلك البلدة، لكن حبي للعنب لا يفوقه شيء من الفواكه، لا لشيء إلا لان الإنسان ابن بيئته، فقد نشأت في منطقة زراعية في فلسطين وكانت تشتهر بإنتاج العنب، وأضحى العنب جزء من ثقافتنا الغذائية في تلك البلاد الخالدة فلسطين.

سألت صاحب البقالة، هل ما بداخل هذه العلب المعدنية عصير عنب حقيقي! فأجابني بالإيجاب، اكتفيت برده وسألته عن السعر، واشتريت كرتونة واحدة من ذاك العصير وحملتها إلى سكني، هناك فتحت صندوق الكرتون، وأفرغت ما به من علب العصير ووضعتها جميعًا في البراد (الثلاجة)، ثم بدأت افتح علب العصير كلما احتجت، لم يمض سوى أقل من أربع وعشرين يوما إلا وكنت قد أتيت على شرب كرتونة عصير العنب كلها، قبل أن أتخلص من أخر علبة فارغة بعد الانتهاء من شربها، رحت أقلبها واقرأ ما كان مكتوب عليها بخط صغير باللغة الإنجليزية، فشد نظري إلى أن ما شربته لم يكن عصير عنب بل كان توليفة مختبرية لعدة مواد أعطت تلك النكهة، ولم يكن عصير العنب الطبيعي أي ذكر من تلك المواد!

المغزى من حكاية عصير العنب الذي شربه الكاتب، وظنه عصير عنب حقيقي، أن من الممكن أن يتبع العدو وسائل زيف خادعة حتى ولو لم تبدو كذلك بواسطة الإعلام، وذلك لكي يجعلنا نخطيء ونخسر أمامه، ونجعله يحقق أهدافه دون أن

نعلم إلا بعد فوات الأوان، بعد أن نكون قد شربنا العصير المزيف، يا ترى كم من الأخطاء ارتكبها العرب استطاعت إسرائيل أن تقدمها عن طريق الإعلام الصهيوني فابتلع العرب الطعم فكانت الخيبات!

لا شك أن القضية الفلسطينية قد أزالت غشاوات كثيرة عن عيون كثيرة وأزالت حجبًا عن عقول كثيرة أيضًا، لأنها عرَّفتنا ما هي الصهيونية، ولأنها عرَّفتنا كعرب بأنفسنا أيضًا، ولولا القضية الفلسطينية لبقي العرب يعيشون حال امتداد عهد الخلافة العثمانية من ناحية التعود على أن يكونوا محكومين من الغير.

إحدى البلاد العربية التي كانت محتلة من قِبل بريطانيا وربما أهلها كانوا ما زالوا يعيشون امتداد الحال الذي كان الوطن العربي يحياه أيام العثمانيين، حينما قررت بريطانيا أن تنسحب من ذلك البلد العربي، ورأت أن تمنحه الاستقلال المقرون باتفاقية التبعية لبريطانيا (اتفاقية جلاء)، عرض البلد العربي على بريطانيا كنوع من الحب والألفة والتعود أن تبقي جيوشها في ذلك البلد، وأن البلد العربي مستعد أن يدفع لبريطانيا التكلفة السنوية لوجود هذا الجيش في البلد العربي، لو تمعنا في حكاية هذا البلد لعرفنا كم أسهمت القضية الفلسطينية في إيقاظ العرب من ذلك السبات الطويل.

حينما يوجز الخطاب الإعلامي الصهيوني رسالته إلينا بالقول، إن إسرائيل لن تنسحب ليس من فلسطين كلها بل إنها لن تنسحب حتى إلى حدود سنة ١٩٦٧م ولن تفعل ذلك! فهذا يكفي أن يكون موقفًا صهيونيًا عنيدًا لنصف قرن آخر من الحروب، وحينما يقول زعماء إسرائيل، سوف نُصر على أن تظل القدس تحت السيادة الإسرائيلية، وسنُصر على أن يبقى مستوطنو يهوذا والسامرة تحت السيادة الإسرائيلية، فمعنى ذلك ألا يكون استحقاق للفلسطينيين على أرضهم، فحتى لو كان هناك سلام وحل فإنه سيكون بلا كرامة للفلسطينيين بمقاييس النصر والهزيمة!

من هنا ستظل فلسطين نارًا تحت الرماد لحرائق كبيرة قادمة لا محالة مهما طال الزمن أم قصر، فالقضية الفلسطينية تمثل وجهًا أخلاقيًا هو نبع لا ينضب لوجود عربي قومي وحضارة إسلامية عمرها ألف وخمسمائة سنة، فمهما قست الأيام ستظل فلسطين نبعًا ينبض بالحس القومي الذي يشحذ الهمم ويُعبيء الإنسان العربي بطاقة كامنة تتنامى مع الأيام ولا بد أن تنطلق يومًا وتتحول إلى فعل، وأما الوجود الصهيوني فهو وجود قزم مهما تقوى ومهما بقي حيًا فمصيره أن يزول، لأنه يعتمد في مصادر فعله على الغير، ولا توجد له منابع للقوة الكامنة كما هي متنوعة للإنسان العربي والمسلم، عوضًا على أن جل نجاحات الصهيونية هو أنها استطاعت في هذا العصر أن تتحكم في العقل الغربي والأمريكي بالذات، وبالتالي هي تتحكم في القرار! ورغم أن هذا يكفي لكي تضمن التفوق على العرب مجتمعين، إلا أن هذا غير كاف على مدى السنين!

لقد رأينا كيف أن ملك الفرس "قورش" قد أعاد اليهود من الأسر البابلي فبنوا مملكتهم التي استمرت فترة من الزمن ثم جاء الرومان فدمروها وهدموا الهيكل وتشتت اليهود في أنحاء الأرض، ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي يُقضى فيها على الوجود اليهودي في القدس بل حدث قبلها أيضًا أن قضي عليهم وشتتوا، وهم في هذا العصر قد أعيدوا أيضًا بمساعدة قوة خارجية وليس بقوتهم الكامنة الذاتية.. وهناك فرق! فإن كان الصهاينة يتحكمون الآن بالعقل الغربي الذي يُصدر القرار فإن ليس من المضمون أن يظل العقل الذي يتحكمون به أسيرًا لهم أو أن يبقى صاحبه هو صاحب القرار واليد العليا في العالم في الزمن القادم!

لا شك بأن الصهيونية استطاعت وما زالت تقوي الأثر التوراتي اليهودي – المسيحي لكي يصير المرجعية الوحيدة للتاريخ في المنطقة، لكي يتم القبول بإسرائيل أو بمعنى آخر العمل على طمس حضارات الآخرين كالحضارة الإسلامية وإخفائها مثل الديانات الهندية القديمة وجعلها على مسافة أقرب من الوثنية، وأبعد عن اليهودية – المسيحية، وخلق موسوعة فكرية جديدة تُعيد خلق العالم

على صورة متناسقة الألوان، اللون الرئيسي فيها المرجعية الصهيونية المسيحية بحيث يكون الفهم الصهيوني اليهودي هو صلب الثقافة الأكاديمية الغربية.

لقد استطاعت الصهيونية أن تقطع شوطًا فيما سعت إليه بذلك الغزو الإعلامي الفكري للعقل الغربي، فعملت بهذا الغزو على إعادة صياغة التاريخ اليهودي وأزالت كل إساءة وجعلت أي شيء ألصِقَ باليهود من تُهم يمكن أن يعاد النظر فيها، لقد عملت على سرقة الإنجازات البشرية (تزييف) فكل اختراع قد أبهر البشر على مر التاريخ أوجد له الصهاينة نسبًا لليهود وتجاهلوا أن المجتمع والبيئة هي التي تتيح للإنسان أن يظهر الفعل والنبوغ، لقد تم اختزال كل مآسي البشرية عبر العصور، واختصرت في السبي اليهودي والتيه والمحرقة النازية ولا شيء غيرها، قالت "جولدا مائير" عن رواية "الخروج" التي كتبها الأمريكي "ليون يوريس" والتي أدت الدور الفكري الصهيوني المنشود، "إنها كانت أكثر أهمية من كل صناديق الجباية في جمع الأموال لصالح الوكالة اليهودية".

مع وصول الثورة التكنولوجية إلى ما وصلت إليه في العشر سنوات الأخيرة من القرن العشرين وما بعدها، استطاع الإعلام الحر في تلك الفترة من الزمن أن يتمرد، وأصبح بالإمكان توصيل الحقيقة من فلسطين بسرعة غير عادية وبدون رقابة إلى أي مكان في العالم حتى قبل أن تتلقفها الآلة الإعلامية الصهيونية وتُعيد طبخها من جديد، ولما فوجيء أساطين الإعلام الصهيوني بما صار يحدث ذهلوا، لكنهم لم يتوانوا، فراحوا يسرعوا في حشد الطاقات من خبرات وإمكانيات لإعادة الأمور إلى نصابها كما كان مسيطر عليها، عمدت إسرائيل مثلاً على التوجه مباشرة إلى الإعلاميين العالمين، وصارت تدعوهم لزيارة إسرائيل على نفقتها، وأتاحت لهم كل السبل لكي يلتقوا بأهل القتلى من الإسرائيليين الذين أصيبوا في العمليات الاستشهادية الفلسطينية، ذلك لأجل التأثير عليهم معنويًا وإنسانيا وجعلهم ينشرون في بلدانهم وجهة النظر الإسرائيلية التي تقول إنها تتصرف بموجب حق الدفاع عن النفس، فتبرر اعتداءاتها المتكررة على الفلسطينيين، وكأن أسباب المشكلة بين إسرائيل والفلسطينيين ليس هو الغزو

اليهودي للبيوت والأرض الفلسطينية في عام ١٩٤٨م وعدم شرعية وجود الدولة الصهيونية على أرض فلسطين التاريخية.

مما يؤسف له أننا نجد في المقابل أن الإعلام العربي، لم يتوقف عند حد الفشل والهروب من المسئولية، بل إنه ساهم من بعيد في العمل بالتعتيم على أخبار العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة في أواخر عام ٢٠٠٨م ويناير ٢٠٠٩م، بعد أن شهد العالم الصمود الأسطوري لأول مرة للمقاومة الفلسطينية في منطقة صغيرة عجزت إسرائيل عن الاستمرار في اجتياحها، فبعد أن صار الإعلام العالمي الحر ينقل إلى مشاهديه صور المجازر الإسرائيلية، وهبَّت شعوب الأرض تُطالب بوقف العدوان على غزة، وكُتب ما كُتب من مقالات وقصائد وأغاني بلغات مختلفة غير عربية عن الصمود في غزة، نجد أن وزراء الإعلام العرب قد اجتمعوا في ذلك الوقت بالذات، وأصدروا وثيقتهم الشهيرة "تنظيم البث الفضائي الإذاعي والتلفزيوني في المنطقة العربية"! وهو ما يعني كبح جماح الإعلام العربي ومنعه من قول ما يريد للمواطن العربي في بلاده، ذلك لخدمة الثالوث الشيطاني، النظام العربي غير المنتخب، والرؤية الغربية الأوروبية - الأمريكية، وحليفهم الإسرائيلي ضد إيران، الذي اكتشفه العرب أخيرًا بالصدفة! وبذلك راح الإعلام العربي بدلاً من التركيز على نتائج القتل والدمار الذي أحدثه العدوان الإسرائيلي في قطاع غزة، راح الإعلام العربي يهلل ويشيع أخبار عن الخلافات الفلسطينية – الفلسطينية، وعن الخطر الإيراني على البلاد العربية، مما أدى إلى طمس ما فعلته إسرائيل، وجعل أهدافها تتحقق من العدوان، كانت إسرائيل تُهدد بالعقاب وتتردد في التنفيذ خوفًا من الرأي العام العالمي إلى أن غامرت ولم يعاقبها أحد.

أليست مفارقة أن تقتل إسرائيل وتدمر الحرث والنسل في قطاع غزة ثم نجد أن العرب يتبرعون لبناء ما دمرته إسرائيل ولم يطالبوا بإجبارها على تعويض الخسائر! هل كان هدف إسرائيل والأنظمة العربية وأمريكا فقط عقاب حركات المقاومة وأهالي القطاع! المرء يتساءل! هل كل ما حدث كان متفقًا عليه مقدمًا؟!

الإعلام الصهيوني إعلام منظم إلى أبعد الحدود، ويمكن فهمه أكثر من قِبل المهتمين خلال الحرب أكثر من فهمه في الظروف العادية، في أيام الحرب يكون استنفار العدو الصهيوني في أكثر من ميدان، منها الإعلام الذي يكون له القول والفصل والكل مهتم به، القيادة السياسية في الدولة، القادة العسكريون، الضباط والجنود وذويهم، الناس العاديين، هذا عدا العالم الخارجي الذي تتجه أنظاره إلى المنطقة لاستجلاء ما يحدث فيها، تلك التي لم تهدأ منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧م، لذا فإن الإعلام الصهيوني يُقسم مهماته إلى أربعة أقسام ويبقى أدائها في أقصى درجات الكفاءة خلال الحرب، متوازيًا مع أداء الجيش في المعركة:

١ - إعلام موجَّه للجماهير داخل الدولة الإسرائيلية.

٢ - إعلام موجَّه للضباط والجنود وذويهم.

٣ - إعلام موجَّه للعالم الخارجي.

٤ - إعلام موجَّه للجيش أو المنظمة التي يحاربها.

لا شك بأن لدى العرب أيضًا إعلام مناوىء للإعلام الصهيوني، لكن الفرق واضح وجلي، ففي الوقت الذي يقف الإعلام الصهيوني آخذًا توجيهاته من مصدر واحد، نجد الإعلام العربي له عدة مصادر، وفي الوقت الذي يضع الإعلام الصهيوني أفضل العقول المتخصصة في الإعلام لكي تقف على خطة واضحة للإعلام الخارجي والداخلي، نجد الإعلام العربي مهلهلاً ومشرذمًا وينقصه الكثير من الحرية والإمكانيات والتخطيط، ويكون الفرق بينه وبين الإعلام الصهيوني من بداية أي معركة واضحًا، فالتفوق يكون بجانب الإعلام الصهيوني، وربما أن أفضل وصف للإعلام العربي، هو ما كانت عليه الجيوش العربية حينما دخلت الحرب عام ١٩٤٨م، كان لكل جيش عربي قيادة وخطة وأحيانًا تتضارب الخطط العربية مع بعضها البعض، في حين أن مجموعات العصابات الصهيونية كانت مُتحدة ولها خطة واحدة بل هدف واحد هو هزيمة الجيوش العربية غير الموحدة القيادة، حتى حينما اختلفت منظمة الأراجون الصهيونية مع الهاجاناه في حرب

١٩٤٨م، لم يتحدى مناحيم بيجن سلطة بن جوريون ولم ينازع الهاجاناه (جيش الدفاع) في المناطق التي خُصصت لليهود وكانت تحت سيطرة قيادة بن جوريون، وأعلن بأنه سيحارب في المناطق العربية التي كان قرار التقسيم قد خصصها للعرب الفلسطينيين فقط.

في حروب المقاومة العربية مثل حرب لبنان ٢٠٠٦م، كان هناك "المؤتمر القومي العربي"، و"المؤتمر القومي الإسلامي"، وشخصيات لا عد لها من كافة الوطن العربي وقد اجتمعوا، ولكن ماذا كانت تملك أن تفعل مثل هذه المنظمات العربية أو هذه المؤتمرات التي لا تُعبر إلا عن نفسها وعن أشخاصها، وأنها لا تستطيع غير تقديم عاطفة جياشة تجاه المقاومين وليس أكثر، أما الحكومات العربية فحدث ولا حرج، فأينما تكون لها مصلحة لزعمائها ستجدها أو تجد إعلامها، وإلا فهي إما متفرجة أو صامتة وفي الغالب غائبة، إن إعلام النظام العربي إعلام مصلحي بعيد كل البعد عن المهنية والاحتراف في ممارسة الدور الإعلامي الكفء والصحيح، فكيف يمكننا والحال هكذا، أن ندَّعي أنه يوجد إعلام عربي دولي! الإعلام الموجود في الساحة الدولية فيما يخص الصراع العربي الإسرائيلي، هو الإعلام الصهيوني وليس أكثر، وحتى الإعلام الصهيوني لا العربي فهو أحيانًا يخدم الشعب الفلسطيني عن غير قصد كون الإعلام العالمي يهتم بإسرائيل، لهذا نجد في كثير من الأحيان، أن كثيرًا من القضايا الإنسانية الفلسطينية يتداولها الإعلام العالمي فتخدم القضية الفلسطينية لأن إسرائيل تكون طرفًا فيها بطريقة أو بأخرى أو لأن الفلسطينيين والإسرائيليين يعيشون على أرض، لهذا يُحاكى الواقع الفلسطيني كلما اقترب الإعلام العالمي من إسرائيل!

هذا، ويعود تفوق الإعلام الصهيوني على العرب لسببين، الأول أن الإعلام الصهيوني إعلام عالمي بالمقاييس الدولية من جميع النواحي، العقل، الإمكانيات، التنظيم، في المقابل لا نستطيع أن نعطي وصفًا صحيحًا للإعلام العربي أكثر مما ذكرنا في السطور الماضية غير أن نقول، عفوًا.. إنه إعلام جاهل ومتخلف وبدائي وأمي، يؤمن بالأساطير فيزيد الناس جهلاً لأنه يُبعدهم أكثر عن الحقيقة!

لذا فإن الإعلام الإسرائيلي يتعامل بفاعلية، ولا يجد صعوبة أن يجد الإنسان العربي غير المحصن، وإعلامه ذو حجة واحدة، ورواية واحدة، لا تُطابق الرواية التي تأتي من الشمال الرواية التي تأتي من الغرب مثلاً، ولا يتبارى هذا الزعيم العربي وزعيم آخر، إلا ويضيع المتفرج من يصدق منهما، الإعلام الصهيوني يتعامل مع الإنسان العربي كما تقول إحدى قصص الأساطير الهندية القديمة.. دعنا نأخذ الحكمة من القصة:

كان في إحدى القرى الهندية معبدًا يُقدم إليه أهل القرية القرابين من الماعز، كان من يود أن يحصل على بركة الآلهة فعليه أن يأخذ رأسًا من الماعز، ويذهب به إلى المعبد ويذبحه ويُقدمه قربانًا.

في صبيحة أحد الأيام توجه قروي فقير مسكين إلى ساحة الآلهة لذبح الماعز التي كان يربطها بحبل ويجرها خلفه، وبينما هو كذلك فقد شاهده ثلاثة من اللصوص كانوا يترقبون عند أطراف بيوت القرية على الطريق، قبل أن يمر بهم القروي، تهامس اللصوص الثلاثة وقرروا أن يستولوا على الماعز من القروي، لكنهم اتفقوا على ألا يكون الحصول على الغنمة بالإكراه، وهنا يكمن مغزى القصة، ذهبوا ينفذون خطتهم! وتوزع اللصوص الثلاثة كل واحد منهم أخذ موقعًا له في طريق القروي، ولكن على مسافات متباعدة..

مر القروي المسكين على اللص الأول ومعه الماعز التي رباها ورعاها لفترة طويلة بهدف التقرب من الآلهة المزعومة، فبادره اللص الأول "إلى أين أنت ذاهب بهذا الكلب؟" فلم يعره القروي اهتمامًا ومضى إلى حال سبيله، بعد مسافة أخرى من الطريق، مرَّ القروي على اللص الثاني، وسأله اللص "إلى أين أنت ذاهب بهذا الكلب وسط الغابة الموحشة؟"، ما كان من القروي إلا أن اشتاط غضبًا وراح يُجادل اللص الثاني، كيف يقول عن الماعز التي هو يعرفها جيدًا، وهو من رباها لأجل هذا اليوم، كيف يقول إنها كلب! وفي النهاية مضى أيضًا كل إلى حال سبيله، عندما اقترب القروي من ساحة الآلهة المزعومة، خرج اللص الثالث في مظهر حارس ساحة الآلهة، وقال للقروي، "ممنوع دخول الكلاب إلى

ساحة الآلهة، وعليك مغادرة المكان فورًا وإلا استحقيت غضب الآلهة!"، هنا اهتزت ثقة القروي المسكين فيما كان يجر خلفه، واستقر رأيه على أن ما يجره مجرد كلب، واستبعد من رأسه أن تتفق الآراء ويظل رأيه صحيحًا، ما كان منه إلا أن تخلى عن هذا الكلب (الماعز) لصالح حارس ساحة الآلهة بعد أن استقر رأيه على أن ما كان يجره كلبًا وليس ماعزًا، وذهب يبحث عن ماعز تفي بالغرض!

يمكن أن نستشف من القصة، بأن جماهيرنا العربية مُضللة، فكيف يمكن أن تكون لنا رسالة إعلامية وفي الغالب أن إنساننا العربي لا يرى ولا يسمع، وكيف يكون لنا إعلام مؤثر، إذا كان إعلام الحاكم لا يُقنع المحكومين، فكيف سيؤثر في الرأي العام الخارجي أو الإسرائيلي.. أو أليست الحرب أولها كلام!

إن صورة العرب في الثقافة التربوية الإسرائيلية في مناهج التربية والتعليم هي ثابتة لم تتغير منذ تأسيس الحركة الصهيونية وحتى بعد قيام دولة إسرائيل، ظل النظام التربوي في إسرائيل يقوم على مرتكز ديني يقول إن أرض فلسطين هي وطن الشعب اليهودي، وبقي الكره والتعالي على العرب ديدن الإعلام والزعماء والمؤسسات التعليمية في المدارس والجامعات، الملفت للنظر أن منهج التعليم الإسرائيلي وُضِع على أساس قيم الثقافة الدينية اليهودية، وعلى تحصيل العلوم ومحبة الوطن والولاء لدولة إسرائيل والشعب اليهودي، والتدرب على العمل الزراعي والحرفي وتحقيق مبادئ الريادة، ويُلاحظ القارئ لكتب الأديان اليهودية أن اليهودي ينظر إلى الأغيار وخاصة العرب منهم نظرة استعلائية.

بالنسبة لأدبيات الطفل اليهودي فقد وضعت له المناهج التي توجهه إلى الأمور الدينية، وإلى أن أرض فلسطين هي لليهود، أما العرب فقد احتلوها في الماضي وجعلوها خرابًا، وكان العرب فيها قليلين، وحينما يشيرون إلى المستعمرات التي ينشئونها ويضعون صورها في الكتب المدرسية فإنهم يضعون صورًا للقرى الفلسطينية البائسة، فيرون الطفل اليهودي أنه ينتمي إلى قوم متحضر قوي وغني، وليس مثل أصحاب تلك القرى الفقراء المتخلفين.

إنْ أشارت مناهج التعليم الإسرائيلية إلى بلاد الخليج العربي على ما فيها من طرق وحدائق وبناء وخدمات، إنما يُشيرون إلى الخوف من قيام دولة عربية أصولية قوية بسبب وجود الثروة النفطية، ويعتبرون الأردن لهم لأن به آثار إسرائيلية، ولا يخلو بلد عربي من أطماعهم لسبب أو لآخر، إن أخطر ما في أدبيات الإسرائيليين التي يبثها إعلامهم ليس مجرد الاكتفاء بفرض صورة قاتمة عن العرب في أذهان أبنائهم، وإنما تجاوزوا ذلك إلى محاولة تهويد فكر الناشئة العرب في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م.

هذا، وفي الأدب اليهودي العام نرى صورًا كثيرة شبَّه بها الكتاب والأدباء اليهود العرب بأوصاف ما أنزل الله بها من سلطان، الحاخام اليهودي "عوفاديا يوسف" مثلاً قال في تصريح عنصري نُشر في أبريل عام ٢٠٠١م وصف فيه العرب بأنهم "أولاد أفاعي وأن الله ندم لأنه خلقهم وبالتالي الواجب قتلهم"، وقال "موشيه منوحن" مخاطبًا القائمين في إسرائيل، "علمونا كذلك أن نكره العرب، وأن نطردهم بقوة السلاح إن تطلب الأمر على اعتبار أن فلسطين هي بلادنا لا بلادهم".

ومما قاله بن جوريون في تجميل صورة قتل العرب، "القتل هو الوسيلة المثلى لتحرير الطاقة الكامنة لدى الجندي اليهودي"، وقال موشيه ديان: "قتل العرب هو قدر جيلنا"، أما جولدا مائير فقد أنكرت أصلاً وجود الفلسطينيين كشعب، وقال مناحيم بيجن زعيم منظمة أراجون، ورفائيل ايتان رئيس الأركان الإسرائيلي الأسبق، في احتقار العرب "إن العرب مجرد صراصير يجب سحقهم".

معظم المفكرين والزعماء الصهاينة، جعلوا عقيدتهم السياسية أن اليهود يجب أن يستوطنوا تلك البلاد وأن يعمروها حسب أسس الحضارة الغربية، لأنها الكفيلة بإحداث التنمية، يقول هرتزل، "إن قيام دولة يهودية في فلسطين يُشكل عنصرًا أساسيًا ومُهمًا من عناصر مواجهة الروح الوحشية بأشكالها المختلفة السائدة في آسيا ومقاومتها".

لكن بن جوريون من ناحية أخرى، يُقر بأن هناك شعبًا آخر في فلسطين لكنه يتصف بالهمجية، فيقول في هذا، "صحاري إسرائيل كانت قديمًا آهلة بالسكان وإنها لم تكن خالية، ويضيف "إن ثقتي ببني جنسي تجعلني أقول بإن الأثر الحقير والمخزي للتراث العربي لن يستمر إلى الأبد، وأن العرب حوَّلوا بلدًا مزدهرًا ومأهولاً إلى صحراء".

القصة في الأدب اليهودي لها دور أيضًا، ويظهر فيها الحقد الصهيوني على العرب والسخرية منهم عوضًا عن الاشمئزاز ووصفهم بأقبح السباب، فهم همج وجبناء وخونة ولا يوثق بهم ولا يتصفون برجولة أو نخوة، العربي من النظرة اليهودية هو غريب يعترض سبيل ابن البلد اليهودي، لماذا لا يذهب الغريب إلى الصحراء ويعمل في الجمال، ويقولون أيضًا إن العربي كابوس مزعج لليهودي، وتُسيطر عليه نزعات الشر فهو خبيث ومكار وقذر ومتعطش للدماء.

"ناتان شاحم" في قصته "غبار الطريق" ذكر حوارًا دار بين اثنين من اليهود، قال أحدهما إن العرب مثل الكلاب، فإذا رأوا أنك مرتبك ولا تقوم برد فعل على تحرشاتهم يهجمون عليك، وإذا قمت بضربهم فسيهربون، وأضاف أحدهما أيضًا، إن العربي الجيد هو من لا يملك نقودًا، وإذا أردت أن تفهم العربي فعليك أن تفتح رأسه، ويُجمع الكثير من الإسرائيليين بأن العربي الجيد هو العربي الميت.

هذا، وقصة "خربة خزعة" للكاتب الصهيوني "سميلانسكي يزهار"، يُبين فيها صفات الجبن عند العربي وإنه سرعان ما يفر من الميدان، أما الكاتب والناقد العبري "ايهود بن عيزر"، فيقول في قصته "أفرات" "حسن شاب عربي من مدينة صفد التقي فتاة يهودية اسمها أفرات، وطلب منها الزواج، لكن أفرات اقترحت عليه شيئا آخر، أن تعطيه مبلغًا من المال كي يحميها، فيوافق حسن، ولكنه نكث بوعده وحاول اغتصابها"، هذه القصة القصيرة تدرس في المدارس الثانوية في إسرائيل حسب الخطة التربوية الإسرائيلية.

وها هو "يجال ألون" أحد أقطاب الحكم في إسرائيل، وأحد منظريها وصاحب نظرية أن حل القضية الفلسطينية هو أن وطن الفلسطينيين شرق الأردن أو ما أطلق عليه في الماضي "مشروع يجال ألون" الشهير، يقول ألون في كتابه "بيت أبي" مبينًا عدوانية العرب وحكمة وشهامة الإسرائيلي، "اقتربنا من حقلنا وشاهدنا عربيين ومعهما حصانين كانا يأكلان من سنابل القمح في حقلنا، صاح أبي بهما وطلب إبعاد الحصانين عن المحصول، نظر أحد العربيين باستهتار تجاه والدي مستخفًا به، وكال له أبشع الشتائم، ما كان من والدي إلا أن اقترب منهما وقفز عن العربة وهي تسير ورفع المذراة لكي ينقض عليهما، رأيت أبي يصارع أحدهما فما كان من الآخر إلا أن حاول أن يمسك برقبة أبي، لكن أبي كان قد استطاع أن يطرح العربي الأول على الأرض، وبحركة غير عادية وهو يحاول أن يُلقي بجسده على العربي الممدد، أمسك برجل الآخر فلواها وطرحه على الأرض أيضًا، كان أبي في ذلك الوقت يحمل مسدسا لكنه لم يستخدمه، قفز العربيان وأخذا حصانيهما وجريا والخزي على وجهيهما".

هكذا إذن، لقد أضحت القضية الفلسطينية مطروحة أمامنا مثل جثة في الرمق الأخير، بينما المستوطنون اليهود أرضًا وثقافة وهوية حضارية غربية يحيون قضياهم الميتة، لا أحد يجرؤ أن يسأل أو يتساءل بصوت مسموع من كان السبب بجعل القضية الفلسطينية معتلة هكذا، الكل خائف.. فكيف يجرؤ أحد أن يتحدث عن شيء ممنوع الحديث عنه لأنه مقدس عند البعض، والمقدس هو حقيقة والحقيقة لا تناقش، فكيف بنا أن نسأل عن القضية المقدسة، وإذا انتقلنا للتفكير بالسؤال عن المسئول عن هذه القضية فسنجد أن هناك أيضًا رقابة آتية مزروعة بداخلنا بل تسكننا، تحذر وتمنع أن نتوجه لأحد من الزعماء الذين لهم حق ملكيتها ولو وهي هامدة بالسؤال، لأنهم أيضًا ارتقوا إلى مستوى التقديس، أليسوا هم أهل القضية وورثتها الشرعيون.

لكن القضية الفلسطينية بالنغمة التي تسير بها الأمور تحتضر، وهي بلا مبالغة تموت شيئًا فشيئًا في هذا العصر، والموت يعني التحلل والاختفاء.. متى سيسمح

بالحديث عنها وأخذ شهادتها قبل أن تصمت نهائيًا! بعضنا يُطمئِن ويقول من بعيد، لا تقلقوا فالأمور بخير، والمسالة مسألة وقت وليس أكثر، وبشائر النصر والتغلب على الصهيونية تهل قادمة، والدليل أن يهود العالم ليسوا كلهم مؤيدين للدولة الصهيونية في فلسطين! إن معنى الكلمات الأخيرة هو أن كل ما أصاب العرب من ويلات ونكسات هو من فعل جزء من يهود العالم، ومعنى هذا أيضًا، أن يهود العالم لو اتحدوا جميعًا فسنرى على أيديهم العجب العُجاب من الويلات، وما تشيب له الولدان! فهل يا ترى يمكننا أن نعتبر عدم تأييد يهود العالم جميعًا لإسرائيل نصرًا حققناه ونِنام! هل نحن الذين استطعنا أن نفرق آراء اليهود! ماذا كان دورنا؟ هل كان لنا دور حقيقي فعلاً؟!

متى سيعرف العرب بأن اليهود وإن اختلفت آراؤهم تجاه دولة اليهود، فإنهم يبقون يهودًا، تجمعهم التوراة والتلمود وبروتوكولات حكماء صهيون، وأساطير أرض الميعاد وشعب الله المختار، ولتنسني يميني إن نسيتك يا أورشليم! إذن لماذا يُضيِّع فلاسفتنا الوقت، ولماذا لا يسموا الأشياء بأسمائها، ولماذا لا يتوجهون إلى الواجب المقدس وبالفم المليان يُعلموا الناس أن البلاء الذي يصيبنا ليس من اليهود فقط، إنما من حلفائهم الطبيعيين الذين يعيشون فينا وبيننا.. الجهل والتخلف، والحكم الفاسد المصلحي والعائلي، والتبعية لأجندات الغير، وأن يُعاد الحديث عن الوحدة العربية الكبرى، أين الإعلام العربي الذي يدعو إلى الوحدة العربية وإلى هدم الإقليمية.

لماذا نهرب من مصيرنا ونشغل أنفسنا بالحديث عن انقسام يهود العالم بين مؤيد وغير مؤيد للدولة اليهودية! فإذا كان يهود الولايات المتحدة مثلاً، يواجهون معضلة الحسم بين هويتهم اليهودية المتميزة كيهود أمريكان، وبين أن يكونوا يهودًا يمثلون إسرائيل في أمريكا، لماذا يشغلنا مفكرونا بالحديث عن اليهودية الصهيونية المؤيدة لإسرائيل التي قدمت اقتراحًا للحكومة الأمريكية يعتبر غير عادي لتميزه بالثورية، طالبت به مقاومة الزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود في أمريكا، وذلك لضمان تقديم تربية يهودية حقيقية للنشيء، لماذا ننشغل

بمفاجأة أن يهود الولايات المتحدة قد رفضوا الاقتراح بحجة أنه عنصري، وأن كثيرًا من قادة اليهود الأمريكان هم من نتاج الزواج المختلط، إذا كان هذا قد حدث فعلاً في أمريكا فليس معناه أننا نحن العرب قد حققنا نصرًا، فنحن وصلنا منذ حقبات إلى حال أضحينا فيه لا نتعامل حتى مع ردود الأفعال بعد أن ابتعدنا كثيرًا عن منطقة الفعل نفسه!

إذا كان هناك توتر بين اليهود المؤيدين لإسرائيل واليهود الذين يعتبرون الولايات المتحدة وطنهم فهل هذا يُغير من نظرة يهود العالم شيئًا بالنسبة للحق العربي في فلسطين، ونفس الشيء، فهل هناك مسلم على وجه الأرض لا يتمنى أن تتحرر فلسطين! المفروض أننا كعرب لنا أولويات هي التركيز على حل مشاكلنا الداخلية أولاً وتحدي الواقع، وهذا ليس معناه ألا ننظر لتفهم هكذا قضايا مثل ما يطرأ من تحولات على يهود الولايات المتحدة أو مثلما يبدو أن يهود المنظومة الروسية وما حولها من الذين هاجروا واستقروا في الولايات المتحدة، هم من ينشدون الاستقرار النهائي في أمريكا، ويؤيدون الزواج المختلط وأن الكثيرين منهم لا يعتبرون أمريكا وكندا منفى يهودي!

حينما نتحدث عن تبرعات اليهود سواء لإسرائيل مباشرة أو للجمعيات اليهودية في أمريكا، وما زال الحديث عن يهود أمريكا، فإن التبرعات الداخلية هي لغايات أمريكية عامة وليس للطائفة اليهودية، في نفس الوقت أن القيادات اليهودية الموالية لإسرائيل ترفض الدعم الحكومي للتربية اليهودية خوفًا أن يمس هذا موضوع فصل الدين عن الدولة المقر في الولايات المتحدة، رغم أن الدعم الحكومي هو أحد الأدوات الآنية في مقاومة ذوبان اليهود في المجتمع الأمريكي.

إن الحديث عن إغراءات إسرائيل ليهود العالم، كيهود إيران مثلاً، وقول إسرائيل إنها مستعدة بأن تدفع لكل شخص يهودي يهاجر من إيران إلى إسرائيل مبلغًا مقداره خمسة آلاف جنيه استرليني، هذا أيضًا من حقائق وجود إسرائيل، وهل كانت إسرائيل لتقوم وتنمو إلا بهجرة اليهود، أليست إسرائيل أساسًا هي مشروع هجرة؟ ألم يحن الوقت لكي نخطو خطوة ولو واحدة إلى الأمام؟ إن التفات

المفكرين العرب إلى الإنسان العربي وتعريفه بحقيقته هي الخطـــوة الأولـــى، لأن هذا لو حدث سيكون الدرس الأول لكي يتعلم العربي أن يكون مسئولاً عما حـــدث بدلاً من الهروب دائمًا من مواجهة الموقف إلى تحميل الغير فقط لما يُعانيه مـــن تخلف، لأن قوة أي عدو هي من ضعف خصمه.

هل من المنطق أن نقول لإسرائيل تنازلي عن قوتك أو نقول للإعلام الصـــهيوني تخاذل لأجل أن نلحق بك! لو حدث هذا وهو افتراضيًا فكأننا نقول للإســـرائيليين عودوا من حيث جئتوا، إن عودة اليهود من حيث جاؤا وتركهم فلســـطين لا تـــتم بدون ثمن سنتقاسمه كلانا، نحن واليهود، بفارق المنتصر والمهزوم وكما حـــدث حينما تتوج نصرهم بقيام دولتهم على حسابنا، إن اليهود حينما عزموا على غزو فلسطين، لا شك بأنهم فكروا جيدًا، ونحن حتى الآن لا يبدو أننا استعملنا عقولنـــا بطريقة صحيحة بعد، وهم تجرأوا وتحدونا في دارنا، ونحن لم نقـــدر أن نحمـــي دارنا، والأهم أنهم اتحدوا ونحن ما زلنا في بلادنا متفرقين!

إن ما يحدث للوطن العربي يهز الجبال، ويدعونا في كل يوم أن نبحث عن طريق لاستعادة كرامتنا، الأوطان تحرق أمام أعيننا وشعبنا العربي يُهان ويذل في بلاده، وها هي القضية الفلسطينية وقد مضى عليها ما يزيد على مائـــة عـــام منـــذ أن وُجدت الحركة الصهيونية رسميًا كصوت عالمي لليهود، حينما كنا صـــغارًا كنـــا ننتظر بفارغ الصبر حلاً للقضية الفلسطينية، وصرنا نكبر، وكلما استعجلنا الحـــل صدمنا الواقع بابتعاد الحل! كان هذا الاستعجال نتاج نفسية المناضل ذي الـــنَفَس القصير، وما بين النضال والهزائم العربية وتراكم الفشل ومرور السنوات، تكون لنا مقدسات، القضية والزعماء، لقد أصبح من المحرمات المساس بهما حتى ولو كان مجرد اقتراب من القضية والزعماء، لذلك فقد أصبحنا حذرين، أصبح الإنسان العربي العادي يخاف مجرد أن يهمس عن المقدس حتى لو كان يود أن يـــدرس لماذا فشلنا طيلة كل السنوات الماضية، المحرمات لا يجب الاقتراب منهـــا! هـــل يجب الاقتراب من الزعامات التاريخية! وهل يستطيع أحدنا أن يُجـــاهر بصـــوته

ويقول لها أخطأت أيتها الزعامة في السنة الفلانيـــة أو فـــي اليـــوم أو الموقـــف الفلاني!

قياداتنا لا تعتبر بأنها أخطأت، فمجرد أنها تتعامل مع قضية مصـــيرية كالقضـــية الفلسطينية، تعتبر أن ذلك يكفي لكي يبرر كل الهزائم والنكسات! حينمـــا وجـــدت الزعامات مواطنها العربي بكل أطيافه لا يسأل، وجدت أن من حقها أن تســـتفرد بالقرار وبالملكية، وتسلحت بالشعارات وراحت تطعمها للعامة تبنًا وقشًا، لقد شبع المواطن العربي حتى التخمة، وشرب حتى ثمل مما أطعمته الأنظمة والزعماء من شعارات واستعدادات، وإطلاق أوصاف على إسرائيل، مؤامراتهـــا، وحكوماتهـــا، وتوسعها وأطماعها وانقضاضها وإنكارها للاتفاقيات ورفضها للسلام، ومصادرتها للأراضي وضمها.. إلى أخر ما فعلته إسرائيل، وما قد تأخذه من حقوقنا.. إلى كل ما قيل عنه منذ إعلان إسرائيل دولة مستقلة.

ولأننا كرماء كما نبدو فقد جنحنا للسلم بطريقة مُذلة تفتقـــر إلـــى بُعـــد النظـــر والحسابات الواقعية الصحيحة، وهنا السؤال، أي سِلم من حيث المبدأ يمكـــن أن يتم وبأي منطق! ألم يكن المشروع الصهيوني منذ بدايته مشـــروع اســـتيطاني، وكان واضحًا أن عماده الأول هم المهاجرين اليهود الذين قدموا إلى أرض الميعاد المزعومة، وأن أرض الميعاد تنتظر أصحابها المشتتين، وأن المهاجرين قادمون ولن يتوقف قدومهم ما دامت إسرائيل موجودة على أرض فلسطين! فأي منطـــق وأي سلام سيجمعان النقيضين الفلسطيني والإسرائيلي، اللذين لا يصـــح الواحـــد منهما إلا بزوال الآخر؟!

إن ما لم يعلمه العرب، أن إسرائيل تبنـــي سياســـاتها بنـــاء علـــى تصـــرفاتنا! الفلسطينيون مثلاً يبدون لإسرائيل بأن ليس لهم استراتيجية حرب ولا استراتيجية للسلام، والعرب بعد هزيمتهم في حرب ١٩٦٧م تحولوا فـــي يـــوم وليلـــة مـــن رافضين لوجود دولة إسرائيل إلى من يتوسلون السلام مع إسرائيل بالحد الأدنـــى من الاحترام الذي يمكن أن تمنحه لهم، من ناحية أخرى، الإعلام العربي المهلهل، الذي لا يعرف حدوده يساعد إسرائيل كثيرًا في وضع استراتيجياتها المســـتقبلية،

فكثيرًا ما يكشف هذا الإعلام مواطن الضعف في النفسية العربية، ويمنح إسرائيل فرصًا ذهبية للتركيز على مواطن الضعف العربي.

هكذا إذن، فإن إعادة المسؤولية إلى سوء النوايا الإسرائيلية أو إلى الأطماع، وإلى مسلسل المكر والخداع الذي تمارسه إسرائيل، والتنصل من الالتزامات والاتفاقات، يفترض أن لا تسعف الذين دأبوا منا على استخدامها مشجبًا يساعدهم على التنصل من أخطائهم، الذين يصبون اللوم دائمًا على إسرائيل وحلفائها، لم تُشكَّل حتى الآن لجنة فلسطينية واحدة ناهيك أن تكون لجنة عربية قومية لبحث الصراع العربي الصهيوني، ولم يحدث أن قدَّمت أي لجنة دراسة وتوصيات بمستوى ما كان يخطط له اليهود في القرن التاسع عشر، إن الاستمرار فقط في لوم إسرائيل والصهيونية في كل ما يحدث لنا من إهانات وسقطات ونكسات، يجب ألا يجعلنا نقبل الأمر الواقع ونبقى تحت تأثير أن القضية مقدسة ليس من حقنا أن نقول فيها أو أن القادة هم أيضًا مقدسين فلا يجب محاسبتهم.

في وقفة عند المقاومة الفلسطينية: ما هي استراتيجية المقاومة، هل هي استراتيجية مقاومة من أجل تحرير غزة والضفة أم أنها من أجل تحرير مناطق أوسع من غزة والضفة، ثم ماذا تعلم الأنظمة العربية المهتمة عن نوع الاستراتيجية الفلسطينية للتحرير إذا كان هناك أصلاً استراتيجية تحرير أم أن استراتيجية التحرير سر لأن له علاقة بالمقدس ولحراس المقدس الذين ما زالوا يديرون الصراع بعقلية الستينات من القرن الماضي، أنا ربكم فاعبدون، لا يضع الاستراتيجية الهجومية إلا الأقوياء، وقد يكون الضعيف قويًا حتى إذا كان في موقف دفاع، لأنه يملك إرادة الهجوم والصمود، أو لأن له هدف نبيل أثمن من التضحيات المتوقعة، فما بالنا إذا كان الهدف بحجم تحرير وطن واستعادة حق وكرامة شعب، فحينما نقول ليس عند الفلسطينيين استراتيجية فالمعنى يمكن الحصول عليه بالمقاييس التي وصفنا بها من يضع استراتيجية، لأن الضعفاء المفلسين فكريًا الذين يعتمدون على شخص واحد لكي يسوقهم لعبادته، هؤلاء لا يكون لهم استراتيجية.

إن الصراع العربي أساسه هو صراع بين إنسان وإنسان آخر أي بين فكرة وفكرة أخرى، بين الإنسان اليهودي الذي خطط جيدًا، وبين الإنسان العربي الذي لم يكن يدري أنه لا يدري، لذلك بقي تأثير الكم العربي مغيبًا وليس لـه أثـر، إن ممـا يؤسف له أن الإنسان العربي حينما أقيمت إسرائيل وبعد ذلك لفترة ليست قصيرة، لم يكن قد وصل من الوعي والثقافة السياسية العامة إلى معرفة الحدود الجغرافية أو التاريخية لوطنه، لا أقول لوطنه العربي بل لحدود الإقليم العربي الذي يعد هو في أغلب الأحوال أحد مواطنيه، فإذا كان اليهودي الذي ولد هو وأقاربه وأجداده في روسيا أو في أي بلد آخر، ظل يتناقل الوعي والحلم والمعرفة أبًـا عـن جـد وكابر عن كابر، وظل يسعى إلى العودة إلى أرض الميعـاد المزعومـة إلـى أن أدركها، واستعد أن يدفع ثمنًا غاليًا فكان له الغلبة وحقق هدفه ولو إلـى حـين، فكيف هو حال أبناء الأمة العربية الذين في الغالب يعيشون حياة العصور القديمة، ولم يأخذوا من تقدم البشرية حتى الآن سوى المظاهر فقط! كيف يمكن أن تكـون للعربي استراتيجية منافسة لليهودي القادم من ألمانيـا وغيرهـا فـي حـين أن الإنسان العربي يجهل كل شيء عن وطنه وعن تاريخه!

المفارقة أنه حتى بعد حرب ١٩٦٧م، كان هناك من العـرب مـن لا يعرفـون أن صحراء سيناء تقع في غزة أم في مصر، طالب جامعي من إحدى البلاد العربيـة المجاورة لفلسطين سألني يومًا، "هل غزة تقع في سيناء أم صحراء سيناء تقـع في غزة؟!" وخلال عملي في إحدى البلاد العربية حدث إنني ذهبت في مهمة عمل إلى منطقة بعيدة في تلك الدولة، وكان يجب أن امضي ليلة هناك لاستكمال العمل، فكنتُ ضيفًا على المسئولين بالمنطقة، عند المساء دُعينا لتناول طعـام العشـاء فحضره أشخاص قليلون من وجهاء المنطقة من أصدقاء المضيف، حينما توجهت للمائدة كان قد سبقني عدة أشخاص منهم بعض الوجهاء الذين أشرت إليهم مـن الذين يعتبرون في تلك المنطقة من المفوهين الذين يضفون حضورًا مميـزًا فـي المكان إذا تواجدوا في مجلس، قبل أن آخذ مكاني في مجلس العشاء، وجَّه الرجل المفوه سؤاله لي وقال "هل أنت ممن يعتقدون أن الأمريكان قد أرسلوا إنسانًا إلى

القمر"؟ وأكمل قائلاً "إذا كنت من أولئك فلا تأكل معنا.. نحن لا نأكل مع الكفار؟!" كان الرجل لشدة إيمانه بما قال جادًا في كلامه لي، وكان يبدو ما قاله على قسمات وجهه، أنه يعني ما يقول، وكان له سطوة ونفوذ على مضيفي لمكانته الاجتماعية وربما لإمكانياته المادية أيضًا، ما كان مني إلا أن حسمت الموقف بسرعة لمعرفتي بالجهل الذي يعشش في الوطن العربي، وما هي إلا ساعات ويطلع الصباح وربما لا أعود إلى هذه المنطقة أبدًا بعد ذلك اليوم، قلتُ رادًا على الرجل، "استغفر ربك يا رجل.. فهل تراني من الذين يصدقون ما يقوله الكفار؟ توكل على الله ودعنا نتناول الطعام"، ما كان منه إلا أن همهم قائلاً "كنت أظنك"، ومد يديه لتناول الطعام، لا يُعتبر ما ألمحت به هنا شيئًا جديدًا أو نادرًا، فأنا متأكد بأن لدى القارئ من الحكايات عن جهل مواطنينا وشعوبنا ما يُضحك وما يُخجل!

في المقابل ركز الصهاينة على تعبئة الشبيبة اليهودية بتدريسها التوراة والتراث اليهودي بصفة عامة لتحقيق الأهداف التي وجدت الصهيونية من أجلها، الهدف هو خلق شخصية يهودية جديدة حسب منهجية توجيه الميول والسلوك، وخلق شخصية يهودية شجاعة متفوقة عصرية مقدامة، أغلب القادة والزعماء السياسيين الإسرائيليين كانوا قد نشأوا وأعِدّوا حسب هذا المنهج، لذلك تجد معظم السياسيين صقورًا في إسرائيل، وأغلب هؤلاء أو معظمهم يبدأون عسكريين في الجيش الإسرائيلي، وصلت نشوة القوة عند الإسرائيليين إلى حد الولاء للجيش أكثر من الولاء للدولة، لأن الوجود الصهيوني في فلسطين بدأ بالمقاتلين ثم بالدولة، لذا يقال إن إسرائيل جيش له دولة.

وهنا نرى كيف تبدلت الأمور بعد أن كان اليهودي يوصف حسب دراسة نفسية قام بها الباحثان الإسرائيليان "تامارين" و"بن تسافي" في العام ١٩٦٩م، قالا إن صورة اليهودي قبل عام ١٩٦٧م كانت قاتمة إلى حد أن وصفاها كأن بها كل العيوب الخلقية والسلوكية التي يمكن أن توجد في البشر، فهو قبيح المنظر والمظهر ومنغلق وغريب وكسول ولا يعرف كيف يعيش الحياة كما يجب - بهذا المعنى كان رأيهما، لذلك اتبعت الصهيونية منهجًا تربويًا نفسيًا، وظفت فيه

إمكانياتها المادية، وراحت تعيد تشكيل شخصية الإنسان اليهودي، وحولته من إنسان جبان هياب خجول إلى مقاتل شرس وعنيد ومندفع، ولأنه يجرب العنف لأول مرة فإن ما يقوم به من قسوة عمياء أعطت انطباعًا عند الآخرين بأنه شجاع ومقدام، وتعلم الثقة من عدم قيام الإنسان العربي بما يجب أن يكون عليه فأصاب الخلل الموازين بين العربي والصهيوني اليهودي!

عملت الصهيونية على إطلاع أبنائها في المدارس على كتب المفكرين والعلماء اليهود من رواد الحركة الصهيونية، بهدف إعادة تكوين وعي الطالب وصياغته من جديد، وجعله يؤمن بصورة مطلقة بأن اليهودي فوق الجميع، وهو ما أدى إلى خلق مجتمع عنصري، يتساءل المرء ماذا يتوقع من إنسان يترعرع في هكذا مجتمع! فكانت النتيجة استقواءه على العربي واحتقاره.

في المقابل نجد أن النظم التربوية العربية تساعد أيضًا في تأكيد ما يقوم به النظام التعليمي والتربوي في إسرائيل من هذه الناحية في الوقت الذي تضخ فيه المناهج التعليمية الإسرائيلية في عقول أبنائها، التعالي والعنصرية والنبوءات المزعومة مثل، شعب الله المختار وما شابه، ونجد أن نظام التعليم العربي والإعلامي في الوقت نفسه، أنه يحاول إقناع الطفل العربي بأن إسرائيل حقيقة وموجودة من خلال التعلق بالإعلام الإسرائيلي وفتح السفارات والمكاتب السياحية قبل إتمام عمليات السلام المزعومة، الطامة الكبرى أن العرب يفعلون هذا وفي نفس الوقت هناك من يدعو أو يدَّعي المقاومة.

الخلاصة أن المؤسّسات التعليمية والدينية والعسكرية والإعلامية الإسرائيلية، نجحت إلى حد بعيد في أن تخلق لدى الإسرائيليين فكرة نمطية - عنصرية ثابتة عن العربي، يعتقد غالبية الإسرائيليين أن العرب أدنى من الإسرائيليين، وهو ما ساعد على الإفراط في استعمال القوة تجاه الفلسطينيين عند مقاومة الاستيطان، في اليوم الأول لاندلاع انتفاضة الأقصى سنة ٢٠٠٠م، التقت المذيعة المشهورة "كرستيان أممبور" في قناة "سي.إن.إن" الأمريكية الشهيرة برئيس الحكومة الإسرائيلية آنذاك "إيهود باراك"، وتساءلت عن سبب استعمال القوة بالشكل الذي

بثته القناة قبل اللقاء حيث كانت قذائف الدبابات الإسرائيلية والرشاشات الثقيلة تضرب الشجر والحجر ونوافذ البيوت بصورة لا تتقيد بقوانين الحرب، أجاب حينها باراك، "هذا هو الرد المناسب في هذه المنطقة، فنحن لسنا نعيش في الولايات المتحدة، هذه المنطقة تحتاج هكذا رد".

لقد اظهر أكثر من استطلاع إسرائيلي، بأن الرأي العام في إسرائيل يقر أن "العرب لا يفهمون سوى لغة القوة، ولذلك فاتباع سياسة الردع والعنف معهم هو الأسلوب الأمثل، فهم قوم فرديون، مفككون، يميلون إلى الكذب والمبالغة وخداع الذات، وهم بالمقارنة بالإسرائيليين كسالى وجبناء وخونة، ومستوى ذكائهم منخفض، وعلى الجملة هم أدنى من الإسرائيليين"، ويتفق مع هذا الاستطلاع كثير من أعضاء منظمات حقوق الإنسان في إسرائيل والعالم مثل المحامية (الإسرائيلية) "فليتسيا لانغر" التي قالت إن إسرائيل تعمل على تعليم الطالب اليهودي في إسرائيل فنون الحرب وكيف يجيد القتل، وكيف يحقد على العرب ولا ترتجف يداه وهو يطلق النار من سلاحه.

هذا، وإن قول عالمة النفس الإسرائيلية "عاميا ليبليخ" يُعتبر في منتهى الأهمية لعلماء النفس الفلسطينيين والعرب وكل من له علاقة بفكر المقاومة، تقول عاميا ليبليخ عن الظاهرة التي لازمت الوجود الصهيوني على أرض فلسطين، "إنّ التعايش مع الحرب، كان وما زال جزءًا رئيسيًا من حياتنا، منذ إقامة الدولة وكذلك في الفترة السابقة عليها"، لهذا أصبحت العسكرة والعنف صفات للشخصية الإسرائيلية وعلى العرب مواجهتها سواء بالإقناع للعدول عنها أو بالصمود في وجه العنف وتحطيمه!

من هنا يمكن القول بإن العنف الذي هي عليه الشخصية الإسرائيلية، ناجم عن التربية والتعليم، وربما جاء اليوم الذي يتحدث فيه العرب حينما يفاوضون عن السلام مع إسرائيل، بالا يُطلب فقط من العرب أن يبتعدوا عن التحريض وإنما على إسرائيل إذا كانت جادة في السلام المزعوم بأن تُعيد مراجعة مناهج التربية والتعليم على احترام الشخصية العربية حتى يكون هناك دور لسلام حقيقي.

لهذا، وكنتيجة لما يحدث حقيقة في إسرائيل، فإن المنادين بالسلام في إسرائيل الذين ملوا من الحروب المتواصلة، هم أقل تأثيرًا في المجتمع الإسرائيلي من المتطرفين الذين يُمثلون الغالبية، وذلك بسبب التربية العنصرية العدوانية في المجتمع الإسرائيلي، وبسبب التخاذل العربي غير المكترث الذي يبقى صامتًا في حين قلة لا تساوي نسبة منه هي التي تقاوم بوسائلها البدائية، التي يستفيد منها واضعي المناهج التعليمية في إسرائيل فتكون سببًا للاهتمام ولاستمرار التشدد والاستقواء على العرب، ما دام تحقيق النصر عليهم سهلاً أو كما كان يحدث دائمًا.

لقد لعب علم النفس لدى الصهيونية دورًا هامًا في المجتمع الإسرائيلي وعند يهود الشتات، ولدى الشعوب الأخرى، لا شك بأن الكثير قيل عن الهولوكست النازي، وصدَّقه من صدقه، وأنكره من أنكره، وما زال الكثيرون يتساءلون، لكن الصهيونية لا تتعامل مع الهولوكست كقضية إنسانية بحتة تُشير إلى ظلم الإنسان للإنسان وكره البشر للشر والإيذاء فما بالنا بقتل الإنسان للإنسان، الصهيونية أخذت تلك القضية كأداة لتخويف يهود العالم وجعلهم يقتنعون بأن لا أمان لهم إلا بوجودهم في أرض الميعاد المزعومة، لذلك تعمل الصهيونية موَاسمًا وأعيادًا ومناسبات للهولوكست في كل عام، وإعلامها يُبقيها في جعبته كرؤوس أقلام لكي يفتتح بها خطابه الإعلامي أو ينهيه، وهل هناك أبلغ مما يتفق مع الأسباب الأخلاقية التي وضعها الحلفاء المنتصرون على النازية!

يعتقد الكثيرون بأن الهولوكست هو مجرد شائعة مبالغ فيها، لكن الإعلام الصهيوني بمثابرته على جعل الهولوكست الحدث الأهم، وحرصه على تعليمه للبشرية لعدم نسيانه، فاستطاع أن يغرسه في عقل الإنسان الغربي كأسطورة، لأن الأسطورة درجة أرقى وأسمى من الشائعة، فالشائعة مثلاً يمكن دحضها ومناقشتها، وأما الأسطورة فهي قريبة من المقدس كونها لا تحتاج إلى تأويل في أساسياتها، لذلك نجد أن الصهيونية تكاد تحرم الاقتراب من موضوع الهولوكست حتى أنها لا تقبل أن يقارن به شيء، لأن لا شيء من المنظور الصهيوني يُشبه

الهولوكست مهما كانت فظاعته وترويعه وعلى من وقع ظلمه، من هنا يمكن القول أيضًا، بأنه لولا أن الصهيونية هي حركة علمانية في الأساس لأضفت على الهولوكست مسحة حلولية دينية بمعنى أن الله يمكن أن يحل بالبشر وبالأشياء فيصبح الهولوكست نوعًا من النبوءات الدينية كما اعتاد المزيفون أن يفعلوا.

ولكن هناك من الإسرائيليين أنفسهم من يتحدى الصهيونية ويدحض ادعاءاتها، وأن مبالغة إسرائيل في استغلال الهولوكوست أثارت مشاعر يهود كثيرين ممن عاشوا تجربة الهولوكوست من بينهم "إسرائيل شاحاك"، الذي يرى أن تعرض شخص أو أمة ما للظلم ليس مبررًا لظلم الآخرين، وبأن الهولوكست كان أحرى به أن يدفع باليهود إلى كراهية الظلم ونبذه، وحول فضح عنصرية إسرائيل، المؤسسة على عقلية الغيتو المتمركزة حول ذاتها يقول إسرائيل شاحاك، "يكره الناس كلهم اليهود، وهي كراهية لا تزول، لذلك يعزل اليهود أنفسهم من غير اليهود، إن أرض إسرائيل تخص اليهود وحدهم"، بل إن إسرائيل شاحاك يعتبر الصهيونية فكرة شريرة بسبب موقفها التوتاليتاري المؤدي إلى حالة حصرية لم تعرفها الحركات القومية، أما اليهودي الأمريكي – "تورمان فلنكشتاين" الذي كان والده من ناجين الهولوكست، اتهم في كتابه "صناعة الهولوكوست" الصهيونية بالتجارة في مشاعر الآخرين وعذاباتهم.

هذا، وما زال علم النفس أيضًا يلعب دورًا مهمًا بالنسبة للدولة الصهيونية وتململها لأجل أن تظل تمضي في طريق التفوق، عام ١٩٤٨م كان عدد اليهود في فلسطين سبعمائة ألف (الإحصاءات الصهيونية)، وعدد العرب مجتمعين يزيد عن ثمان وعشرين مليونًا من البشر، بل إن الرقم الحقيقي كان يفوق هذا العدد بكثير، ولما انتصرت إسرائيل في تلك الحرب قال ديفيد بن جوريون إننا متفوقون على العرب بنسبة واحد إسرائيلي مقابل أربعين عربي، أي أن كل إسرائيلي يستطيع أن يواجه أربعين عربيًا، وقد أطلقوا على ذلك معادلة بن جوريون، ظل الإسرائيليون يحاولون عدم نسيان تلك المعادلة، لذلك وضعوا شعارًا بأن على

إسرائيل أن تزيد من حجم الهجرة اليهودية إلى إسرائيل حتى تظل نسبة اليهود إلى العرب في إسرائيل كنسبة واحد إلى أربعين!

كما أن شائعة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض، ظلت تلامس في معناها أو تقترب من أسطورة أرض الميعاد المزعومة، رغم أن ملكية الأرض لليهود في فلسطين حتى عام ١٩١٧م حين صدور وعد بلفور كانت لا تتجاوز ثلاثة ونصف بالمائة، وعند صدور قرار التقسيم عام ١٩٤٨م لم يملكوا أكثر من ستة ونصف بالمائة، وفي عام ١٩٨٣م أصبحوا يملكون ثلاث وتسعين بالمائة من أرض فلسطين التاريخية، فإذا كان الأمر كذلك، لماذا كانوا يكذبون حينما يدَّعون بأن فلسطين أرض بلا شعب، إنه التلون بالإعلام!

هذا، وما زالت الصهيونية متحفزة، وتتلاعب بالمصطلحات ولم لا وحقائق القوة على الأرض لصالحها، والإعلام العالمي في خدمتها، النبوءات المزعومة تقول إن الإسرائيليين سينشئون دولة كبرى من النيل إلى الفرات! عندما يشعر الصهاينة بأن هذه النبوءة متعثرة يلجأون إلى تعديل المسار بالقول إسرائيل العظمى بدلاً من إسرائيل الكبرى، باعتبار أنه لو حدث سلام واضطرت إسرائيل أن تُضحي بحلم إسرائيل الكبرى، فإنها ستنشيء إسرائيل العظمي كونها ستصبح القوة الاقتصادية الصناعية المهيمنة على المنطقة، وبهذا تستعيض عن كِبَر مساحة الدولة من النيل إلى الفرات بالتفوق النوعي التكنولوجي، وهناك أيضًا مصطلحات إشاعات مثل مصطلحات الشرق الأوسط الكبير، وتطبيع ما بعد السلام الخ، وكلها شائعات تحاول أن تثبتها إسرائيل في الثقافات المحلية لكي يظل زمام مبادرات التفوق خاصًا بإسرائيل في منطقة أصحابها ما زالوا لا يقومون بالحد الأدنى من مقاومة سرطان الصهيونية الذي يكاد أن يقضي على كل أثر للعرب في فلسطين.

من أنواع الحرب النفسية التي درجت الصهيونية أن تشنها على البشرية ما ظلت تباهي به البشرية من أن معظم العباقرة من مخترعين وفلاسفة وباحثين وغيرهم في العصر الحديث هم من العنصر اليهودي، وهذا من المنظور الصهيوني يُدعم

زعمهم بأنهم شعب الله المختار، قد يسود هذا التفسير على البعض إلا أنه لن ينسجم مع المنطق حتى أن أولئك اليهود الذين تتغنى بهم الصهيونية ما كانوا ليحققوا ما وصلوا إليه إلا لأنهم كانوا نتاجًا للحضارة الغربية وقد أشرنا إلى هذا، فالبيئة والمجتمع قد أتاحا لهؤلاء الناس بأن ينجحوا وينتجوا، ولولا أنهم قد انتموا إلى الحضارة الأوروبية المتفوقة بالذات لما أبدعوا ولا أنتجوا، لماذا لم يُبدع يهود العالم الثالث مثلما وصل إليه يهود أوروبا أليسوا أيضًا يهودًا ومن شعب الله المختار المزعوم.

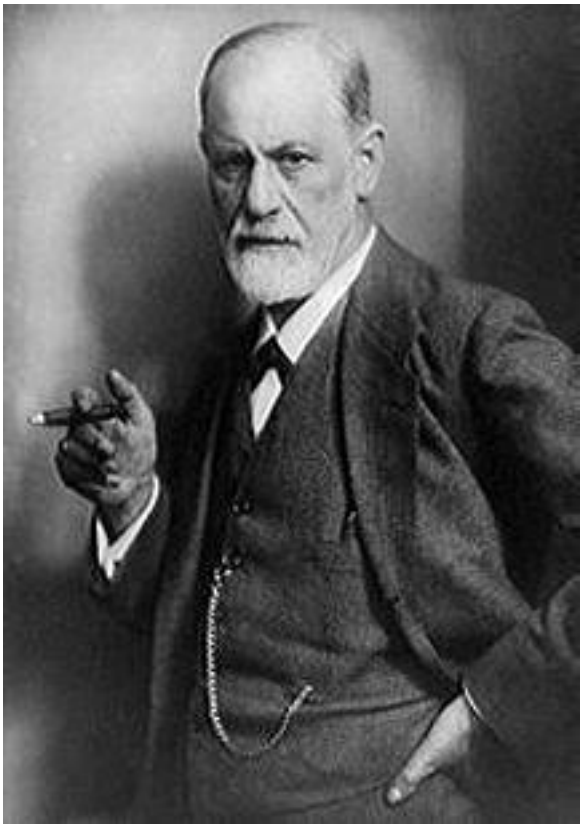

سيجموند فرويد ١٨٥٦م – ١٩٣٩م

Sigmund Freud

في كتابه "قصة الشعب اليهودي" يقول السير "مارتن جلبرت"، "كنتُ مولعًا بالسياحة، فبينما كنت أزور الأماكن التاريخية في تركيا عام ١٩٥٧م، قابلت

سائحان ألمانيان في أحد الأماكن السياحية التركية، سألاني كيف يمكنهما بالسيارة أن يمسكا بالطريق التي تؤدي إلى خارج تركيا لتقودهما إلى الهند، تحاورت معهما ونظرنا إلى الخرائط الجغرافية وخمنا أن تتجاوز المسافة أكثر من ألفي كيلو متر لكي يصلا إلى الهند، وبعد انتهاء سياحتي في تركيا عدت إلى بريطانيا بصحبة "نيل مالكولم" الذي قابلته باليونان في طريق عودتي إلى بريطانيا حيث كانت وجهة نيل أيضًا، اتفقت مع نيل أن نقوم سويًا في يوم من الأيام برحلة إلى الهند.

أيام دراستنا الجامعية في أكسفورد، كنتُ قد تعرفت على زميل في الدراسة من الهنود الآسيويين، وكان اسمه "أشوك"، بقيت أتبادل الرسائل مع أشوك حتى بعد أن تخرجنا من الجامعة، في إحدى رسائل أشوك قال لي فيها إذا ذهبت يومًا لزيارة الهند، مُر على والدتي فبيتنا يقع في مدينة "دلهي"، عام ١٩٥٨م حان الوقت للقيام برحلة إلى الهند، وفعلاً قمت برحلة مع "نيل مالكولم" وذهبنا إلى الهند وهناك افترقنا، كل واحد منا اتجه لزيارة مدينة على أن نظل على اتصال، فضلت أنا أن اذهب إلى مدينة "دلهي" أولاً، وفعلاً وجدتُ نفسي أطرق باب بيت والدة أشوك صديق الدراسة الذي نصحني يومًا بأن أزور والدته، كنت منهكًا من الرحلة وكان يبدو الإعياء علي، فتحت السيدة "فوري" الباب وكان هذا اسم والدة أشوك، فوجدت منها ترحيبًا لم أتوقعه، عرفتها على نفسي فأحسنت وفادتي، وقدمت لي أسرتها وعاملتني كابنها تمامًا، كانت تُقدم لي كل مساعدة وكل خدمة، وكانت تهتم بالأماكن التي أنوي زيارتها أو أقيم فيها خلال تواجدي في الهند.

كانت "فوري" زوجة ابن عم "جواهر لال نهرو" الزعيم الهندي الشهير الذي كان رئيسًا لوزراء الهند في تلك الأيام، عمل زوجها في أكثر من منصب في حكومة الهند، وفي فترة من الفترات كان سفيرًا للهند في الولايات المتحدة وكنت ألتقيهم أحيانًا حينما اذهب إلى الولايات المتحدة، بقيت اكتب لعائلة هذه الأسرة الطيبة وكان ابنها ما زال يقيم في لندن، بعد عام ١٩٧٠م لم أشاهد العمة فوري ولا زوجها العم "بيجي" فقد تقاعدا ووصلا إلى عمر ٩١ سنة واستقرا بالهند، وفي

عام ١٩٩٨م قمت وابني "ديفيد" الذي بلغ العشرين عامًا يومها بزيارة للهند، كانت الرحلة هذه المرة بالطائرة وليس مثل المرات السابقة التي كنت أقوم بها بالقطار أو بالسفينة.

خلال تواجدنا في بيت العمة فوري والعم بيجي دار حديث بيننا مختلف هذه المرة، سألتني هل أستطيع أن أجد لها كتابًا تقرأه عن تاريخ اليهود، وحينما لاحظت هي على وجهي الاستغراب من سؤالها، أضافت قائلة: أنا يهودية الأصل من المجر، وهذا لم يمنعني أن أحب أسرتي أبنائي وزوجي وعائلة نهرو وأحب الهند، وأن أعيش حياة الهنود في ملبسي ومأكلي وسلوكي الاجتماعي، لكنني أريد أن أعرف من أنا.. لا أعرف شيئًا عن اليهود، فقد كان والدي جزء من الجالية اليهودية في بدابيست أيام إمبراطورية المجر، وكنتُ في العشرين من عمري عام ١٩٣٠م حينما قابلت زميل الدراسة بيجي في لندن وفي عام ١٩٣٥م تم الزواج".

طبعًا صاحب الكتاب "مارتن جلبرت" هو يهودي الأصل، وهو كاتب ومؤرخ بريطاني معروف، حاول في كتابه أن يُعرف اليهود بالحديث عن التاريخ اليهودي الذي لا يعرفه كثير من اليهود من خلال رسائله التي كان يرسلها إلى العمة فوري، وتاريخ كهذا لا يمكن أن يكون تاريخًا لشعب واحد، لأنه تاريخ انتقائي، تاريخ يغتصب تاريخ الأمم الأخرى، يأخذ ولا يُعطي، ويأخذ الأفضل فقط وينسبه لبشر آخرين، إن ما لمع به بعض النوابغ من اليهود في بعض المجتمعات، إنما يعود الفضل فيه إلى المجتمع الذي أعطى الفرصة، فالإنسان هو الإنسان في سيبيريا بروسيا أو لوس انجيلوس بأمريكا أو في عنتيبي بأفريقيا، فنظام المجتمع ونوع الحياة به هي التي تأتي بالنبوغ، وإلا لماذا اليهودي البريطاني مثلاً عالم ومخترع، واليهودي اليمني حرفي يحذي حوافر الخيل.

هذا، وتذكر موسوعة المسيري، إن من أقوال العالم "سيغموند فرويد" (اليهودي) أو "فرويد" كما هو شائع اسمه، في كتابه "موسى والتوحيد" ما يلي:

"كانت الشروط الأساسية (أيام موسى) تتنافى مع تحول الإله اليهودي (وهو قومي محض) إلى إله كوني، فمن أين تأتى لهذا الشعب الصغير البائس والعاجز صلف الادعاء بأنه الابن الحبيب للرب...".

"... إنه لما يبعث على الدهشة أن يختار الإله لنفسه على حين بغتة شعبًا من الشعوب ليجعل منه شعبه المختار، إن هذه الواقعة يتيمة في تاريخ الإنسانية فقد يحدث أن يختار شعب من الشعوب إلهًا جديدًا، ولكن لم يحدث قط أن اختار إله من الآلهة شعبًا جديدًا"!

لقد كان دائمًا هناك هدفان متلازمان للمشروع الصهيوني لإقامة دولة "إسرائيل"، منذ أن طرحت فكرة الدولة لأول مرة في القرن التاسع عشر، الهدف الأول أن تقوم الدولة، والثاني أن تهيمن على المنطقة بأن تصبح هي محور النظام الإقليمي للمنطقة سياسيًا وأمنيًا، ومركز حركته اقتصاديًا، ولنا هنا أن نلاحظ أن الهدف الثاني الذي أخفقت "إسرائيل" في تحقيقه، يحاول أن يتحرك الآن مدفوعًا بطاقة الديناميكية الاستراتيجية للنتائج العسكرية للحرب في العراق، وإن كانت قوة الدفع الأمريكية له ليست وليدة اليوم، بل إنها تتحرك على أساس من جهود جرت منذ سنوات في الولايات المتحدة لتحقيق هذه النتيجة، وكان يقودها مجموعة ممن شغلوا مواقع رئيسية ومؤثرة في حكومة الرئيس بوش منذ تصديهم لتقديم هذه الفكرة في دراسات من خلال مراكز بحوث مرتبطة بـــ"إسرائيل"، وفي أوراق كُتبت خصيصًا لكي تكون هاديًا استراتيجيًا لبنيامين نيتانياهو عندما كان يتأهب لتولي رئاسة الحكومة الإسرائيلية في عام ١٩٩٦، وبرز منهم في القيام بهذا الدور ريتشارد بيرل، ودوجلاس فايث، واليوت أبرامز، من أقطاب حركة المحافظون الجدد التي أدارت السياسة الخارجية، والعسكرية في حكومة جورج دبليو بوش.

ثم انتقل هذا الهدف من إطار الطرح النظري، إلى دائرة التطبيق العملي، حين أصبح متداولاً بين المراكز السياسية والاستراتيجية في الولايات المتحدة، التي كانت تتابع التخطيط لحرب العراق بالمتابعة والتحليل، ورأت أن إعادة رسم

الخريطة الإقليمية للشرق الأوسط، لتحتل فيها "إسرائيل" موقعًا مركزيًا سياسيًا واقتصاديًا وأمنيًا، هو أحد الأهداف غير المعلنة رسميًا لحرب العراق، إن جذور هذا الهدف قديمة قدم التفكير في قيام دولة يهودية، وقد سجلها نبي الصهيونية تيودور هيرتزل في عام ١٨٩٩م، في مفكرته التي صدرت في عام ١٩٠٢م في كتابه دولة اليهود، الذي تضمن نظرية سياسية استعمارية، وتحدث عن الهدف الأول وهو قيام "إسرائيل"، ثم انتقل إلى الحديث عن قيام القاعدة الصناعية المتقدمة بعد قيام الدولة وفتح الجسور بينها وبين الدول العربية، التي حينها ستساهم برءوس أموالها في دفع هذا التقدم الصناعي ونموه، وتفتح أسواقها لتستوعب الإنتاج اليهودي، وتُسيطر "إسرائيل" على مصادر الثروة في الشرق الأوسط.

كانت نظرة الحركة الصهيونية للشرق الأوسط، أن له وضعًا متميزًا يجب الاستفادة منه، فالشرق الأوسط كان في أغلب فتراته التاريخية قاعدة لدولة كبرى مثل مصر الفرعونية، والإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية العثمانية وغيرها، وحيث لا توجد في هذا الوقت تلك الدولة الكبرى في الشرق الأوسط، فإن إسرائيل يمكن أن تكون هذه الدولة الكبرى، وكان معروفًا أن الحركة الصهيونية درست جيدًا تاريخ الدولة العثمانية منذ قيامها، وحاولت الاستفادة من تجربتها، حيث كانت تركيا التي قامت على أساسها الإمبراطورية العثمانية دولة صغيرة تجاورها من ناحية الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي أصابها الضعف، ومن ناحية أخرى العالم الإسلامي المفكك والمتناحر مع بعضه البعض، وبالاستفادة من هذه الظروف، كان من اليسير لتركيا الصغيرة أن تُسيطر على جيرانها، وتُقيم دولتها الكبرى.

أي أن الهدف الثاني لإسرائيل، تاريخيًا، كان يعني أن الصدام حتمي بين المشروع الصهيوني، والمشروع القومي لأي نهضة عربية، وبالتالي كانت العروبة وفكرة القومية العربية، بمعنى التكامل العربي سياسيًا واقتصاديًا وأمنيًا، تمثل منذ البداية عقبة، لابد من العمل على تفتيتها، لذلك صاحب كل الحروب العربية الإسرائيلية،

حشد إسرائيلي مكثف لأسلحة الردع النفسي (الإعلام)، القصد منها إحداث حالة جماعية من الإحباط النفسي لدى الأمة العربية، وفقدان الثقة بالنفس، ومن ثم فقدان الثقة بفكرة العروبة ذاتها، وفقدان الثقة بقدرة العرب على أن يقفوا حتى مع أنفسهم، والتشكيك في الهوية العربية الجماعية وأصولها الحضارية أو الثقافية، لقد كان جزءًا من دوافع إثارة الأزمات والحروب الأهلية والإقليمية - وأشهرها الحرب الأهلية اللبنانية، وأزمة غزو العراق للكويت - يرمي إلى زيادة الجفاء وتوسيع الفجوة بين العرب والعرب وتفتيت الهوية الجماعية العربية، وقد أحدث ذلك كثيرًا من الشقوق بل وأدى إلى هدم الكثير.

وفي الأوقات التي اكتسبت فيها فكرة تفعيل الهوية الجماعية العربية قوة دفع، فقد كان رد الفعل الإسرائيلي يظهر قويًا ليطرح البديل عن النظام الإقليمي العربي، حدث هذا عقب انتهاء الحرب الباردة في أواخر عام ١٩٨٩م، وما بدأ يسود من اعتقاد، بأن قدرة أي دولة مستقبلاً على مواجهة التحديات والتنافس في العصر الجديد، هي رهن أدائها ضمن تكتل إقليمي اقتصادي، مهما يكن ثراء مواردها، وأن المستقبل هو للكيانات الإقليمية التي تتكامل اقتصاديًا بعد أن قفز عنصر القدرة التنافسية الاقتصادية، إلى رأس قائمة أولويات مكونات الأمن القومي للدولة، وعندئذ بدأ الترويج للمبدأ الذي طرحه شيمون بيريز عن الشرق الأوسط الجديد، والذي كان في ظاهره إطارًا للتعاون الإقليمي الاقتصادي والاستثمارات المشتركة وفتح الحدود والأسواق وإن كان في باطنه نبض مشروع الحركة الصهيونية الأساسي والقديم.

عن الهدف الثاني بعد قيام الدولة اليهودية، وهو أن تكون هذه الدولة هي مركز الهيمنة الصناعية أو السياسية والقوة الكبرى في المنطقة، ليس لأن قوتها خارقة وإنما لاستفادتها بالتخطيط المنظم من ضعف الآخرين، وغياب مفهوم التخطيط طويل الأجل عن عملهم، وأن تكون هذه القوة الكبرى، التي تدير قوتها الصناعية والاقتصادية بطاقات دول المنطقة، قادرة على هذا النحو، على أن تكون ندًا لدول العالم الكبرى الأخرى، ويُذكرنا هذا التوجه الاستراتيجي، بموقف لـــ "بنيامين

نتانياهو" رئيس وزراء "إسرائيل"، أمام المؤتمر السنوي لمنظمة اللوبي اليهودي (الإيباك) في الولايات المتحدة في واشنطن عام ١٩٩٧وكان يعرض لقدرة "إسرائيل" وحدها على قيادة التقدم في المنطقة، بناء على قدرتها على الهيمنة وليس على عملية السلام، يومها قدم نتانياهو في حركة حماسية لأحد علماء إسرائيل الذي أمسك بيده وكان جالسًا إلى جواره على المنصة، ليطلب منه أن يشرح إنجازاته العلمية، ليقنع الحاضرين بأن الذي يحكم ميزان القوى في المنطقة هو التقدم العلمي وعنصر آخر هو الديمقراطية، وراح بنفس الأداء الحماسي الدرامي، وهو يلوح بساعديه في الهواء، يحاول إقناع الحاضرين بألا فائدة من اتفاقات سلام مع أنظمة غير ديمقراطية، وقد علت نبرات صوته وكأنه يصرخ وهو يقول أنتم (يقصد الأمريكيين) لا تعرفون الشرق الأوسط، الذي نعيش نحن فيه، فهذه منطقة يحكمها حكام، لا يعني توقيع أي معاهدة بالنسبة لهم شيئًا، أي أن فكرة الهيمنة وأن تكون "الدولة الصهيونية" هي الدولة المحورية التي تقود وتخطط وتقرر، ظلت في عمق التفكير الإسرائيلي للمشروع الصهيوني، حتى وإن كان موضوع الحديث هو اتفاقيات السلام.

يوري أفنيري Uri Avnery :

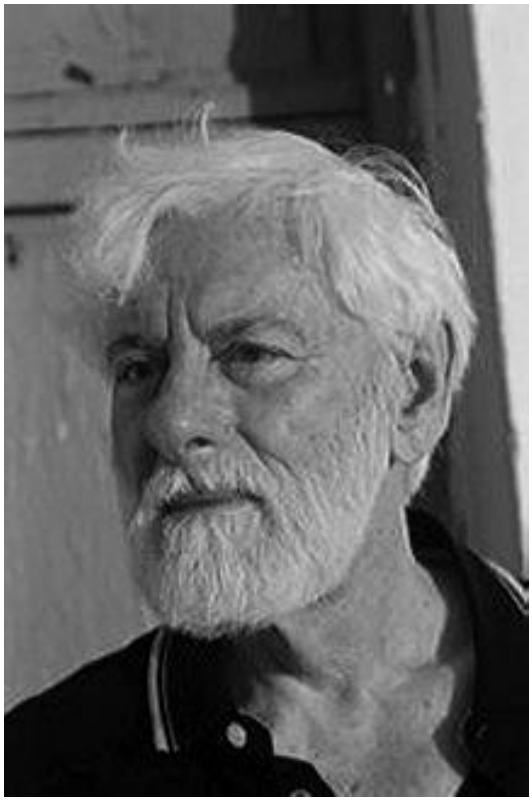

يوري أفنيري Uri Avnery

"يوري أفنيري" من مواليد ألمانيا سنة ١٩٢٣م، هاجر إلى فلسطين عام ١٩٣٣م، هو صحفي يساري مشهور، كان عضوًا في منظمة "أراجون" التي رأسها "مناحيم بيجن" أحد رؤساء وزراء إسرائيل السابقين الذي وقع مع الرئيس المصري "أنور السادات" معاهدة كامب ديفيد سنة ١٩٧٩م، اشترك أفنيري في حرب ١٩٤٨م، وكان عضو سابق في الكنيست الإسرائيلي، قابل ياسر عرفات أثناء حصار بيروت، وكان أول إسرائيلي يقابله عرفات، وأثارت مقابلته لعرفات ضجة في الأوساط الإسرائيلية في حينها وتم استدعاؤه وتم التحقيق معه، في عام ١٩٩٣م أنشأ حركة السلام في إسرائيل، يقول أفنيري "إسرائيل تحتاج إلى فزَّاعة لكي تدفع باليهود إلى المزيد من العنف، فإن لم تجد مبررًا بحثت عن سبب مهما كان، في الماضي كانت فزاعة إسرائيل وحجتها لبقاء المجتمع العسكري في إسرائيل، هو الميثاق الوطني الفلسطيني مع أن القليل جدًا من الفلسطينيين من قرأه، وأقل

منهم من يتذكر فحواه، ورغم إننا أجبرنا الفلسطينيين على إلغائه فإننا أصبحنا نبحث عن شيء آخر يُخيفنا، المفارقة أننا لم نعدم وسيلة فوجدنا أن حق العودة هو الفزاعة التي سنستغلها ليس كمشكلة عملية يتم التعامل معها بطرق عقلانية، بل كوحش تقشعر له الأبدان"!

من الأهمية بمكان أن ينتصب العقل ويُلقي نظرة قبل أن يتجه إلى ديناميكية الرؤية ويلتفت نحو كل الجهات ثم ينطلق بحذر في بيئة المنطقة العربية المليئة بالألغام من كل الأنواع، إذن لا بد من عملية استشراق قبل الانطلاق إلى الأفق الأرحب، لذلك لابد أن نأخذ في الاعتبار أمورًا في غاية الأهمية، وألا نكون كمن يمشي وهو نائم، سنأخذ في اعتبارنا أن السيطرة الغربية على المنطقة العربية مستمرة وقد تتجاوز الربع الأول من القرن الحادي والعشرين، وإسرائيل في المنطقة هي إحدى ركائز السيطرة الغربية لأنها جزء عضوي من الغرب متمثلة بالصهيونية العالمية المتغلغلة اقتصاديًا وإعلاميًا وفلسفيًا في دول الرأسمالية الغربية، من ناحية أخرى لأن إسرائيل تأخذ بالنهج الغربي، وفوق هذا لأنها مجموعة احتكارات رأسمالية غربية في المُجمل وفي الأساس، ولها جيش قوي ولا أحد يُنكر بأن له طيران أسطوري يمكنه تغطية المنطقة من باكستان حتى حدود أوروبا.

هذا، وسنأخذ في اعتبارنا أهمية المنطقة لما تُمثله من مخزون للطاقة العالمية، ولذلك فالقوى الغربية لن تتخلى عن المنطقة العربية وعلى استعداد أن تقاتل أي قوة تنافسها في السيطرة على هذه المنطقة حتى لو كانت قوة إقليمية كالقومية العربية في حال نهوضها! كما أن إصرار الغرب على تصفية القضية الفلسطينية أضحى من ضرورات المرحلة القادمة، فاستمرارها أضحى مصدر قلق وتشويش على المصالح الغربية في المنطقة، الأسباب الرئيسية قد تحققت بوجود الدولة الصهيونية، واليهود أخذوا مبتغاهم من الأرض الفلسطينية وقد وصلت مرحلة قيام الدولة الصهيونية مرحلتها القصوى ولا بد من التطوير والتحرك إلى المرحلة الثانية.

بعد الاستشراق المختصر دعنا نُحلق أيضًا في أفق المرحلة الثانية! خلال المرحلة الثانية، سيعمل النظام الغربي المتفوق حضاريًا تحت ظل نظام العولمة الذي يُعتبر الستارة لإبقاء ماء الوجه للحضارات الأخرى كون الحضارة الغربية قد حسمت صراع الحضارات وتفوقت على الجميع، فإنها الآن تُعطي نفسها الحق وهي قادرة أن تطرح مشروعًا للشرق الأوسط حيث لها الحق أيضًا أن تُطلق عليه ما تشاء من الأسماء، مثل مشروع الشرق أوسط الكبير أو الجديد، وسيكون هذا الهدية الثانية بعد فلسطين للصهيونية، بهذا ستصبح إسرائيل القوة العظمى في المنطقة بعد أن كانت القوة الكبرى، وسينتقل موقع إسرائيل بالنسبة للغرب من التابع إلى الشريك.

ما سبق هو التصور القادم لما يمكن أن تكون عليه المنطقة الذي بدأت تتكون غيومه الآن في سماء المنطقة العربية بشرط عدم وجود تأثير محلي من أهل المنطقة، أو ردات فعل يمكن أن تضع عصاها في دولاب المشروع الصهيوني - الغربي وتعيقه بعض الوقت، سواء حدث هذا من العرب والقوى الإسلامية الأخرى مثل إيران أو من قوى أخرى عالمية تنافس الغرب على النفوذ والبترول في المنطقة.

صحيح أن العرب قد حصلوا على الاستقلال الإقليمي المشروط في القرن العشرين، إلا إنهم لم يحصلوا على السيادة السياسية والاقتصادية الحرة، وقد أضاعوا كل الفترة ما بعد الحرب العالمية الأولى بكل تناقضاتها بما في ذلك فترة الحرب الباردة بين الغرب بقيادة أمريكا وبين المنظومة الاشتراكية بقيادة روسيا، دون أن يوجدوا مشروعًا وحدويًا ناجحًا وبذلك خسروا القرن العشرين، وانتقلوا كتركة بين أيدي القوى الغربية لتصنع بهم ما تشاء كونهم أضحوا ليس فقط مخزون استراتيجي للطاقة، إنما أيضًا مخزون جغرافي ديمغرافي استراتيجي للقوى الغربية التي مع نهاية القرن الحالي ستغدو مُجبرة أن تتنازل عن الشرق الأوسط خصوصًا المنطقة العربية لإسرائيل العظمى، التي لن تقبل أن تظل شريكًا للغرب في منطقة تعتبر إسرائيل نفسها كيهود الورثة الطبيعيين فيها للقومية

العربية، وليس من المستبعد أن تُغير إسرائيل أيديولوجيتها في وقت معين فبعد أن أصبحت الصهيونية هي قومية الشعب اليهودي طيلة قرن كامل، فمع التوسع الإسرائيلي المحتمل، ليس من المستبعد أن يتطور اسم الأيديولوجية من الصهيونية إلى السامية، وكون العرب ساميين أيضًا فإن إسرائيل يمكن أن تنافس الغرب في نهاية القرن الحادي والعشرين وتأخذ الاتجاهات بُعدًا آخر، ويُصبح الساميون قوة عظمى ترث كل النفوذ الغربي ليس في المنطقة العربية فحسب بل في الشرق الأوسط الكبير، قد يستغرب الكثيرون هذا الطرح، ولكن يجب ألا ننسى بأن القومية العربية تسير إلى الاضمحلال في كل يوم، اثنين وعشرين دولة حتى عام ٢٠١٠م وقد تزيد، وإقليمية صاعدة الشعور في كل قطر عربي وقومية خافتة الضوء تتلاشى بسرعة نحن مصريون وفراعنة، ونحن خليجيون، ونحن مغاربة، ونحن مارونيون، ونحن أكراد، ونحن بربر، ونحن امازيغ.. الخ.